

أنيس منصور

حياتنا وأغزينا



حلمى التوتى

دار الشروق

لغى وغيرها
(وقصص أخرى)

الطبعة الثانية

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الطبعة الثالثة

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١١ شارع جواد سليم - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقية : شروق - تلبرك ٩٣٥٩١ SHROK UN
بيروت : ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف : ٣٦٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقية : داسوق - تلبرك ٢٠١٧٥ SHROK 20175 LE
SHOROK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL. 637 2743/4, TELEX: SHOROK 267780

أنيس فاضل

لعلى وغيرها
(قصص أخرى)

دار الشروق

قصة حبيبي

كأنني فتحت عيني في قرص الشمس ، وكأن قبلة انفجرت في أذني . . فأنا لأرى بوضوح ، ولأسمع إلا ضوضاء . . ماذا حدث لي ؟ لأعرف . . أنه شاب كأي شاب في الدنيا . . ولكن قلبي تعلق به . . لأعرف لماذا ولا متى ولا كيف . . وأحسست فجأة أنه شيء مهم جدا بالنسبة لي . . وإنني لابد أن أراه كل يوم ، أو أسمع صوته على الأقل . . أما التفكير فيه فهذا يحدث ليلا ونهارا . . وكلما أحسست بالضيق في البيت شعرت به هو أكثر . . شعرت أنه هو الذي سينقذني أنه هو الذي سيرحمي من عذابي مع أمي وأبي وأخوتي . . ولكن كيف يخلصني هو . . طبعا لم أفكر أبدا في ذلك . . بل أن مجرد التفكير فيه يرحمني . ولكني لأعرف اسما لشعوري هذا . . حب ؟ مجرد ميل . . استلطاف . . احترام . . إعجاب . . لكنني في نفس الوقت أكره شعوري نحوه . أكره شعوري بأنني أحببته كده مرة واحدة . . أنني أشعر كأنه اغتصبني . . كأنه دخل قلبي بالقوة . . كأنه لم يستأذن في الدخول . . وإنما ضرب الباب برجله . .

وأحيانا أقول لنفسي أنني لأعرف لي رأسا من رجلين . .

كل يوم أقابله .. كل يوم أراه .. كل يوم أكلمه . وأنا ما أزال
في هذه الدهشة .. أننى لأستطيع الابتعاد عنه .. هذا هو شعورى
بالضبط .. أريد أن أكون بجواره فقط .. ولكن لماذا ؟ في
الحقيقة لا أسأل نفسى أكثر من هذا ..

أريد أن أسأل الناس كلها عنه .. واسألم عنى أنا .. هذا
المولود الذى أحمله في قلبى أريد أن أجده له اسماً .. أريد أن أفرج
الناس جميعاً عليه .. أقول لهم : هذا هو ابنى .. وهذا هو أبوه ..
أريد أن أسمع رأيهم في هذا الحب !

ولأعرف كيف يمكن أن يحدث هذا ..

وفي يوم ذهبنا إلى حفلة .. هو ذهب قبلى وأنا ذهبت مع
إحدى صديقتى بعد وقت طويل حتى لايرانا أحد .. حتى
لا يعرف أحد أن بيننا شيئاً ..

إننى كالتى وجدت أسورة من الذهب في الطريق .. ولقتها في
منديلها ، وألقت بالمنديل في حقيبتها .. وبعد ذلك ذهبت إلى
« تجار الصاغة » لتسألم عن ثمن هذه الأسورة .. كل واحد يقول
كلمته .. هذا يرفع الثمن وهذا يخفضه .. وكلهم يضاعفون
من حيرتى وارتباكى .. سألت الفتاة التى إلى جوارى وأنا
لأعرفها : مين والنبي الواد الحليوه اللي هناك ؟

ونظرت لي ببعض عينها وقالت : هو فين ده يا حبيبي ؟ فأقول لها : الواقف هناك جنب الشباك . . وتقول هي : ده . . ؟ حليوه ؟ . حكمتك يارب . . فين بقى حلاوته . . عينيه الضيقة . . شعره الأكرت . . . التفتفه وهو يتكلم . . يا حسرة . . اللي ماني حد يسر الحاطر . .

كل كلمة من كلماتها كالسكين يقطع خيوط قلبي . .

وأنظر إليه من جديد . .

وأحاول أن أرى هذه الأشياء التي قالت لي عنها . . فلا أجد منها شيئاً . .

ثم لنفرض أن هذا هو شكله ، ثم أنه يعجبني مداخلها هي . . مداخلها أم لسان طويل . . وأنظر إليها مرة أخرى وأقول في نفسي : ويعني أنت اللي عدله . . واللي يشوفك وأنت واقفه يقول عليك قاعدة . . وصدرك ماله كده . . زى ماتكوني محبيه عيل صغير تحت فستانك الجربان . . شوفي نفسك أنت . . ! وابتعد عنها وذهب لاناس آخرين .

. . أنى كالتى قامت باستفتاء وتريد أن تعرف رأى الناهبين .. أنى لأريد أن أوثر على الناهبين أريد أن أسمع رأيهم فيه بحرية وفى كل مرة اقترب من بعض المدعوين والمدعوات اندهش جداً لأنهم لا يتكلمون عنه . . اندهش عندما لأجد اسمه يتردد على ألسنتهم . . أنى أتصور أنهم يجب أن يفكروا فيه . . أن

يتكلموا عنه . . أن يتركوا الطعام والشراب وينظروا إليه فقط . .
ولكني كنت مشغولة به . . ومن حين لحين أنظر إليه فأجد بعض
الفتيات يسلمن عليه . . وأشعر بالضيق من هذا السلام باليد . .
لماذا لا تبسم كل واحدة من بعيد لبعيد .. يعنى لازم اللمس باليد ..
لازم يعنى . . وأتمنى أن يكون لى فى ظهري عيون تراه . .
تماما كالعنكبوت . . يابخت العنكبوت أنه يستطيع أن يرى فى كل
الاتجاهات . . وكلمة عنكبوت هذه لم تعجبني . . فالعنكبوت
تخرج منه خيوط يمكن تقطيعها .. يمكن أن ينفخها الانسان فتظير ..
وأفكارى تشبه هذه الخيوط . . ونظراتى تشبه هذه الخيوط . .
أنى عاجزة أمامه وعاجزة معه ولا أعرف كيف أفر من عيون
الناس ولا من أيدي الفتيات . . أنى أفضل أن أكون كدودة
الحرير . . التى تفرز من فيها خيوطا جميلة . . ومن هذه الخيوط
الجميلة أنسج فساتين جميلة ارتديها عندما أقفل باب غرفتي . .
وأحلم بأننى أنيقة . . أنيقة له ، جميلة له ، عروس له . .

وأسمع ضحكاته تملأ المكان فأتلفت وأنا ضاحكة مثله دون أن
أعرف السبب . . فأجده واقفا مع أصدقائه . . أنهم يتكلمون فى
أشياء لا أعرفها . . ولكن لاشك أنه سيد الموقف ، أنه أحسن من
يتحدث ، أجمل من يضحك ، أروع من يسكت . . طبعا هو
أحسن من بابا وماما وأخى . . طبعا لاشك . . وأسمع فى رأسى

صوت ماما وهي تقول لي : ماله أخوك يابت . . ماله أبوك
يابت . . !

. . وأخيراً قررت أن أبتعد عن هذا الجو . . لقد تعبت
أعصابي . . أنني أخشى أن يسمعي الناس وأنا أكلم نفسي . .
أخشى أن أناديه بأعلى صوتي . . أنني أريد أن أناديه وأقول :
حبيبي أهوه . . عريسي أهوه . . إيه يعني . . سيعرف الناس أنني
أحبه . . وإيه يعني . . أنا أريد أن يعرف الناس ذلك . . سيقولون
أنني مجنونة . . ولكن سيقولون أنه شاب تموت فيه البنات . .
وهذا يرضيني هذا يملأ قلبي بالاعجاب له . . طبعاً أموت فيه . .
والناس ماها . . مال الناس بي . .

وقررت أن أذهب إليه وأقول له : يا الله نخرج . .
ثم أعود وأقول لنفسي : وهو أنا دخلت معاه علشان أخرج
معاه ؟ . .

وفجأة أنظر إليه . . وكأنني فتاة أخرى . . فأجد العرق على
وجهه . . عرق ؟ ! مع أن النوافذ كلها مفتوحة . . عرق ؟ !
لابد أنه مكسوف . . مكسوف من إيه . . إذا كانت الرجال
بتنكسف . . أmaal احنا نعمل إيه . . مكسوف . . وعامل جرى . .
عامل طويل اللسان . . عامل راجل . . هل هذه المرأة ليست
إلا محاولة لتغطية الحجل الحقيقي ؟ ! .

وقد رأيت أنه أتخن مما تصورت وأنه أقصر مما كنت أراه
قبل ذلك . . ثم البنت التي ظل إلى جوارها وكأنه يرفرف عليها
بأجنحته . . كأنه خائف عليها خائف عليها من إيه . . دا شكلها
يقرف . . هل هذا هو النوع اللي يعجبه من البنات . . فيها إيه . .
مش شايفه . .

وأخرجت المنديل من جيبى وتمنيت أن يكون هو فيه . . ثم
بصقت . وقلت بصوت هامس وأنا أترك المكان : أنت فاكر
نفسك إيه . . دا حتى مناخيرك كبيرة ! وأنت عامل زى بابا !

من غير نهاية

آه . . لو كانت أفكاري وعواطفى ملفوفة كلها على هيئة بكرة
خيطة . . لها أول ولها آخر . ولها اللون الذى يعجبني . .
آه لو كنت أستطيع أن أرتب هذه الخيوط بالشكل الذى يعجبني .

آه . . لو كنت أعرف ما يدور فى عقلى . . وفى قلبى وفى
معدتى . . أننى كثيراً اتلخبط فى مشاعرى . . فأحس بالصداع
فى معدتى ، وأحس بالمغص فى عقلى ، وبالقرص فى قلبى . .
أننى لا أعرف أين يوجد الحب ، ولا أين توجد الكراهية . .
ولا أين الجوع والعطش . .

أننى أعرف أن الطريق إلى العقل يمر بالمعدة وبالقلب . . ولكن
أنا لا أعرف أول هذا الطريق ولانهايته . فنحن نأكل ولكن عملية
الأكل هذه عملية عقلية . . والشعور باللذة مسألة عقلية . . والشعور
بالارتياح للذين نجلس إليهم عند الأكل مسألة عاطفية — مسألة
قلبية . .

فبأى شئ نأكل . . بالقلب ؟ . . بالعقل ؟ بالمعدة ؟ لا أعرف !

* * *

وأمس جلست ارتب أفكارى . . حاولت أن أجعل قلمى هو
البكرة . . وحاولت أن أجعل أفكارى وعواطفى هى الخيط
المزدوج . .

ولم أفلح فى ترتيبها . .

ولإنما امسكت هذه الخيوط على هيئة عقد . . وحاولت أن
أحل عقدى واحدة واحدة . .

وكل إنسان فى الدنيا له عشرات العقد . .

وهذه العقد هى نتيجة صراعنا الدائم بين ما نريد وما نستطيع . .

بين الذى نريد أن نحققه . . أن نكسبه أن نفوز به . يعنى بين
أحلامنا وآمالنا وبين الذى نستطيع أن نأخذه من أنياب الناس
وأظافر المجتمع . .

فنحن نريد ، والمجتمع يقاوم أحلامنا . .

فكل إنسان فى جيبه ملايم ، ويريد أن يشتري العارات الكبيرة .

وشعورنا بالعجز عن تحقيق الذى نريده ، هو الذى يعقدنا . . هو الذى
يجعلنا نشعر بأننا عاجزون . . فاشلون . . فنكره القادرين . .
ونحقد على الناجحين . . وعلى السعداء . . وعلى غيرنا من الناس . .

وهذه « العقدة » هى التى تغرى الخيوط بأن تلتف حولى

وتتعدد وتتعدد ويصبح كل انسان شخصا معقدا . . يعذب كل انسان معه وحوله ، ويتعذب هو الآخر . .

بدأت أعد العقد التي عندي . . فوجدتها كثيرة لانهاية لها . . كالعقد الموجودة في أي بلوفر . . في أي بدلة . . في أي فستان . . ولولا التفاف الخيوط بعضها حول بعض لاستحال وجود أي ثوب . . فالعقد هي أساس أي نسيج ، أي شيء نرتديه . . أي شخصية ندخل فيها . . .

وبدأ الكلام يدور بيني وبين نفسي . . أو بيني وبين العقد الكثيرة التي هي نفسي . . وعندما اتكلم مع نفسي فأنني أكون أقل أدبا . . يعني أرفع الكلفة جدا بيني وبين نفسي . .

فقلت : قل لي بقي يا حضرة . . ماهو تفسيرك لرجل كبير زى حضرتك ومعه لعبة صغيرة . . عروسة . . حصان . . شخصيخه وفي جيوبه حصص ولب ؟ ماتفسيرك يا حضرة الأستاذ ؟ .

وردت على نفسي : ماهو قصيدك ؟

قلت : طبعا أنت عارف قصيدى . . عاوز تفسير لهذه الحادثة الطريفة المضحكة ؟

وكان ردى : تسميها مضحكة . .

قلت : آسف أنا أقصد أنها تسيل الدموع .. دموع الضحك ..
دموع الأسف .. لأنها دموع تسيل لمجرد ذكر هذه الحادثة ..
حادثة واحد في يده شخشيخة .. واحد كبير في السن .

وكان ردى : اسمع .. هناك نظرية في علم النفس تقول : أن
الانفعالات الشديدة تجعل الانسان يتحول إلى طفل صغير ..
فالرجل عندما يخاف فانه يصرخ كالطفل ، ويهرب كالطفل ..
والرجل عندما يفرح يتحول إلى طفل .. ويكي من شدة الفرح
وبرقص كأنه عيل .. وهذا الذي حدث أخيراً وأنت تصفه
بأنه يبعث على الضحك هو نوع من الرجوع إلى الطفولة .. فالحب
الشديد والكراهية الشديدة .. وكل ما هو شديد وكل ما هو عنيف ..
يضر بنا كالكره فترتمى في أحضان شبكة الجول .. شبكة
الطفولة .. تعيدنا إلى « اللفة » .. إلى صدر الأم ..
.. فالرجل عندما يحب في سن كبيرة .. فهو مسكين ياسيدي ..
أنه يصبح طفلاً وكل شيء في دنياه يصبح صغيراً . الناس .
يصبح عددهم قليلاً جداً لا يزيدون على أمه ومرضعته .. والبيت
يصبح غرفة واحدة .. وقلمه ، إن كان كاتباً ، يصبح بزازة
لاتفارق فمه .. بزازة لاتكتب .. بزازة لاتنطق لاتقول شيئاً ..
لأنه هو لايقول شيئاً ..

قلت : إلى هذه الدرجة .. هل من الممكن أن تؤدي أشياء

صغيرة تافهة إلى هذه الانفعالات الكبيرة ، إلى تحويل رجل إلى طفل ، وتحويل غنى إلى شحاذ وتحويل جبل إلى صحراء مليئة بالرمال ، وتحويل قلم مليء بالحبر والديناميت إلى بزازة أو زجاجة شفافة . . كل ما فيها سائل له لون واحد .

وكان ردى : طبعا أنت تعرف الذى سأقوله . . هو إنه لا يهر الدنيا غير الأشياء الصغيرة . . أشهر قبلة في الدنيا هي القبلة الذرية . . الذرية نسبة إلى الذرة . . أى إلى الجسم الصغير جدا الذى لا تراه العين ، فاذا انفجر . . أنت تعرف النتيجة . . وقطرات الماء عندما تنزل من السماء تراها في النيل عند الفيضان.. أنها الذرات التى يحقها مياه الأمطار . . والمطر هو دموع السماء ، والعكارة هي دموع الجبال أيضا . .

والانفعالات الشديدة هي النار التى تحول الماء إلى بخار . . وهي النار التى تذيب الحديد . . أعصابك الحديدية . . وهي النار التى تحيل عينيك الجامدتين إلى مصابيح حمراء . . هي النار التى تأكلك فتصبح أفكارك دخانا ، وكلامك شرارا ، وتجعل كل شئ يؤلمك ويوجعك . . .

قلت : أيوه فكرتنى . . أننى ألاحظ أن كل شئ يؤججك . . كل شئ يؤلمك . . كأن أعصابك خارج جلدك . . كأن شعرة جسمك هو أعصابك . . أو كأن كل شعرة في جسمك هي

« إريال » يتلقى كل شىء من الخارج ويوصله إليك بسرعة . . أو كأن هذه الشعرات تتحول إلى أبر تلسعك .. أو كأنك فقير هندی وبدلاً من أن ينام على سرير من المسامير . فإنه قد وضع المسامير في جلده ليصبح كل مكان سريراً له ... فالمسامير في جسمه . . السرير في أى مكان . . أو كأنك جمعت كل الأبر الموجودة في الناس وغرستها في نفسك . . كأنك المسيح الذى تحمل كل الآلام نيابة عن البشر . . قل لى بقى . . إيه حكاية الألم الشديد الذى تعانيه . . ثم ماهى حكاية الاحتقار الواضح الذى تخفى فيه آلامك . . كأن آلامك قطعة من القماش الأحمر . . وضعتها في كيس من النايلون الأسود . . ماهذا يا حلال العقد ؟

وكان ردى : نعود إلى حكاية الرجل العجوز الذى أحب . . لا يمكن أن يكون هناك رجل عجوز يحب دون أن يكون في هذا الحب بعض الاحتقار . . لنفسه أو لغيره . . فهو أولاً يحتقر نفسه لأن الحب جعله يهبط إلى هذه الدرجة . . لأن الحب جعله يضع الحمص والسودانى في جيبه . . ويجعل تصرفاته أيضاً كتصرفات العيال . . وهذا هو الذى يجعل العجوز يحتقر نفسه . . وهو في نفس الوقت يحتقر الفتاة الصغيرة التى يحبها . . يحتقرها لأنها مصدر عذابه . . يحتقرها لأنها جعلته يتحول إلى طفل غير محترم . . أمام الناس وأمام نفسه . . وهذا هو الأهم . . ولأنها لا تقدر حبه لها . . لا تقدر التضحية الشديدة التى قام بها

.. لاتقدر الثمن الذى دفعه من كرامته . . فالحب هنا كالنار التى
تجعل ماء الوجه يتبخر . . تجعل الكرامة تتحول إلى دخان فى
الهواء . . تسمح لى أضرب لك أحد الأمثال . . المثل مش
ولا بد ولكنه صحيح . .

ماهو أحب شىء إلى الذباب ؟ . . العسل طبعاً . . والذبابة تقع
فى العسل . . وتحاول الخروج من العسل . . أنها تحب العسل ،
ولكنها لاتحب أن يمسك العسل بأرجلها ويجعلها عاجزة عن الحركة.
ولا تزال تقاوم وتقاوم حتى تموت . . تموت أحلى ميتة . .

ولكن العسل الذى تحبه قاس عليها . . كأنه وحش قاتل . .
لا يزال يقتلع أرجلها وأجنحتها حتى يجردها من كل عناصر الحياة .
مع أن العسل هو حياتها ، هو بجنيتها ، هو فردوسها الذى تحلم
به . . ويتحول الفردوس إلى كفن . . إلى نعش . . إلى قبر . .
إلى عزرائيل . .

وهذه الذبابة تحب العسل وتحترقه وتكرهه . . وتحبه . . فهذا
العجوز الذى يحب . . أنه يجعل كل عواطفه ملفوفة فى هذا النايلون
الأسود . . حب مع الاحتقار لشخص المحب ، وللشخص المحبوب.
هل فهمت ؟ . . إيه تانى عاوز تعرفه منى وعنى ؟

قلت : والحل ؟

وكان ردی : حل إيه ؟

قلت : هذه العقد ؟

وردت : كل هذه العقد لا يمكن أن يكون لها حل . . وأنا
لأفكر في حلها وإنما أتركها تحل نفسها بنفسها . . وأنا أفضل أن
أعيش في فرن من الانفعالات الشديدة . التي تجعل أعصابي
تذوب ودموعي تسيل ، وعيني في لون الشفق على أن أعيش
وأمت جامدا . . أفضل أن أتحول إلى ذرات كالجبل ، على أن
أبقى صحراء مفككة . . كلها رمال ليس لها شكل ولا حجم
ولا أول ولا آخر . .

أنى لا ألوم الناس ، ولا ألوم نفسي .

قلت : ولاتلوم الاحتقار . . احتقارك لنفسك أو لغيرك . .
ولامانع عندك من أن تكون كهذا العجوز يلعب بالكرة أو البلي
أو البزازة . . أو تلعب به الكرة أو . . البزازة . .

وكان ردی : عندى مانع . . عندى مانع أن أصبح كيسا من
النایلون الأسود ليس في داخله أى شىء . . عندى مانع أن
يكون كل شعورى هو احتقارى لنفسى أو لأى إنسان . .

قلت : اسمع أنت معقد !

وردت : كل انسان كده !

قلت : والخلاصة ؟

وكان ردى : أنا نفسى أكتب قصة طويلة . . أروى فيها كيف حدث فجأة أن عجوزا وأنا مصر على أن يكون هذا المحب عجوزا - كيف أنه أحب فتاة . . ونقطة الصراع بينهما ليست فارق السن : . فالمرأة عندها من مخاوفها وتجارب جنسها كله ما يجعلها تستطيع أن تقف مع أى رجل فى أى سن على مستوى واحد . . فالفتاة فى أى سن تستطيع أن تكون شريكة لأى رجل فى أى شىء أو أى معنى . ونقطة الصراع ستكون بينهما فى شىء صغير جدا . . تافه . . يبدو تافها . . أنها تريد أن يكون صعبا أن ينطق بصعوبة . ألا ينطق بكلمة الحب أبدا . ألا يقولها مهما كانت الظروف . . أنها تريد أن تغتصب منه هذه الكلمة . . أن ترى حروفها ترسم على مر السنين على وجهه ، على لسانه . أنها لا تريد أن تسمع كلمة الحب ولأن تراها ، ولا أن ترى مقدماتها . . تريد أن تحسها ولا تراها ، أن تتوهمها ، أن تتخيلها ، أن تحلم بها ولذلك فهى تنقله إلى جو جميل ، فاذا رأت الحروف الأولى للحب هربت منه وهربت به . ويتعذب هو وتتعذب هى من أجله . وتعود إليه تتمسح فيه . وتبكي لأنها لا تسعده ولا تعرف لماذا تحب الحب وتكره كلمة الحب ، تحب الحنان وتكره كلمة الحنان . أما هو فشكلته . . أنه يريد أن يسمع منها كلمة الحب . أن يسمع منها كلمة الحنان . يريد أن يرى الوجه الذى يحبه وقد

تبدلت عليه كل ألوان الحب . . كل حروف الحب . . فينزل
 شعرها على وجهها كالآلف واللام . وينفتح فيها كالحاء . . ويطبع
 هو قبلة تكون كالنقطة تحت الباء . يريد أن يلصق على وجهها ورقة
 كتبت فيها كلمة الحب ملايين المرات . يريد أن يصبح كلامها
 كله مكونا من حرفين : حاء وباء . . كل الحروف الهجائية
 لاتهم . . كل الكلمات لاتهم . . يهمه فقط هذان الحرفان .
 وتصبح مشكلته أنه يريد أن يسمع الكلمة التي تكرها هي . وهو
 ينقلها إلى الجو الخلو لكي تقولها . . وهي تنقله إلى نفس الجو
 لكي بهم بالكلام ولايقول . . نار . نار . يدخلها برجليه . نار
 تهرب منها هي برجليها وبرجليه . نار تجعل الحديد يتلوى ، والماء
 يغلي ، والعجوز يتحول إلى طفل ، والطفل يلهو ويلعب كالعيال
 ويكي كالرجال .

قلت : وبعدين ؟

وردت : إلى هنا توقفت العقد .. بودى . أن أبحث عن
 نهاية . بعض الناس يكتفون بهذا القدر من القصة . . والباقي
 يغمرونه في النوم . في النسيان . أنهم لا يريدون أن تنتهى . . أو
 يحاولون أن ينسوا أنها بدأت . وينسون بالنوم الطويل . . وينسون
 بالسهر الطويل . وبالحمر الكثير . وبالدوخة المستمرة في العمل
 الشاق ، أو الدوخة التي يصبونها في أقراص منومة أو أكواب

ملونة ، أو في دخان ملون . . أنهم يصبحون كالجبال التي تختفي
قممها في السحاب الأسود :

قلت : وبعدين ؟

وكان ردى : وبعدين ، قل لى أنت أعمل إيه ؟

قلت : أحسن حل هو أن تكتب . . وأعظم حبر في الدنيا :
سواد الليل والدموع . أكتب حتى إذا لم تكن هناك فائدة .

وكان ردى : سأكتب !

* * *

وأضيفت عقدة جديدة ! ! !

خرج من حياتي !

جاءني صديقي مهموما حزينا ، على غير عادته فبادرته قائلا :
مالك ؟ الدنيا حلوة !

فقال : حلوة ؟ على لسانك أنت ، أما على لساني أنا فهي مرة ..
طعمها زى الزفت !

قلت : ماذا حدث ؟ حب جديد ؟
قال : جديد ؟ أبدا .. هو نفس الحب القديم ، ولكن
المهموم والمصائب جديدة ..

قلت : ولكن ماذا حدث ؟ ومتى ؟ إننى أراك كل يوم ،
ولكنك لم تحدثنى عن شئ ..

قال : أنت فاكرك الكلام الذى قلته لك وأنا سكران فى
الأسبوع الماضى ، أنا متمسك به الآن ..

قلت : أنا لا أذكر شيئا مما قلته .. فكلامك كثير ..

قال : أنت تعرف أننى أحبها .. أحب كاترين . مارأيك
فيها ؟

قلت : جميلة وطيبة ..

قال : هذه هي بلوى .. هذه هي مصيبتى .. أنا أحبها
وأغار عليها .. هذا هو سر شقاى ، وقلة نوى ، وانسداد نفسى
وضيق الدنيا فى وجهى .. أنها جميلة ، وليست طيبة كما تقول ..
أنا أشك فى سدايتها أنها ماكرة خبيثة .. ياأخى والله أنا حائر ..
لقد سمعت عنها الكثير .. سمعت أنها أحبت واحداً واثنين وثلاثة ..

قلت : ومتى كان ذلك ؟ ..

قال : أنا أعرف ؟ .. لقد أحبت منذ زمن طويل ..

قلت : أيام كنت تعرفها ؟ ..

قال : لا .. قبل أن أعرفها . كانت تحب فى لبنانى وفى
مصريا ثم فى إيطاليا .. وأنا لاأتصور كيف أنها أحبت هؤلاء
جميعا .. أنا لاأتصور أن الكلام الذى قالته للأول أعادته للثانى
ورددته للثالث ، كلام ممزوج ، كلام قالته ألف مرة .. ثم جاء
دورى لأسمع نفس الاسطوانة .. هذا معقول ؟ . هاتان الشفتان
قد قبلهما عشرات قبلى وهاتان الوججتان ، وهذا العنق ، وهذا
القوام ، وهاتان العينان .. كل هذا يا صديقى كان متعة للآخرين
قبل حضرتى .. تصور هذا .. لقد قالت للأول أنى أحبك ..
فبكى ه . وقالت للثانى أنى أحبك فقال على قدميها ، وقالت

لثالث : أننى أعبدك . . فبكى وبكت . . وأما أنا فقد وفرت
عليها هذه العبارة وقلتها لها ، قلت لها : أننى أحبك . . وبكيت
أنا وملت على قدميها . .

قلت : كل هذا حدث قبل أن تعرفها أنت . . فإذا يعينك من
ماضيها ؟ هل سألت هى عن ماضيك أو حتى عن حاضرك ؟ . .
هل تسمع لى أن أروى لها غرامياتك ومغامراتك منذ سنوات
وحتى هذه الأيام . . لماذا تطالبها بأن تكون قديسة قبل أن تعرفك ،
مع أنك لا تزال شيطانا . . هل سألتك مع من كنت تسكر أمس ،
ومع من كنت ترقص أول أمس ، ومع من سافرت إلى أوربا ،
ومع من ذهبت إلى عزبتك فى المنصورة .

وصاح صديقى قائلا : ماهذا الذى تقوله . . وهل هى مثلى . .
ياأخى أنا رجل وهى امرأة ، أننى لأستطيع أن أنظر إلى وجهها
ولأستطيع أن أستمع إلى كلامها . . كل شىء قديم . . كل شىء
قد حدث قبل ذلك . . وقيل قبل ذلك . . هذا مستحيل . .

قلت : اسمع ياعزيزى . . أنت لن تسعد فى هذا الحب أبدا . .
أبدا أن أكثر الناس سعادة فى حبهم أكثرهم نسيانا . . يجب أن
تنسى ماضيها . . يجب أن تذكر أنها انسان مثلك حاول وفشل ،
كما حاولت أنت وفشلت ، ثم وفقت فى حبها لك . . كما وفقت
أنت فى حبك لها . . هناك نهر مقدس اسمه « نهر النسيان » يجب

أن ينزله المحبون ولو مرة واحدة في حياتهم . . ليغتسلوا من
الماضى . . أن الذى يعيش الآن ، وما يزال ماضيه لاصقا به ،
ضاغطا عليه . . فانه لن يكون سعيدا . .

قال : ماذا تريد أن أصنع ؟ . . أننى أكاد أجن . .

قلت : أبدا أنصحك بشئ واحد : لا تنظر إلى الوراء . .
أنظر إلى الأمام إلى مستقبل هذا الحب ، أنها جميلة وطيبة . .
استمتع بجمالها واسترح إلى طبيعتها . . فان الجمال والطيبة قلما
يجتمعان معا . . أنت فى نعمة يا عزيزى هذه النعمة تجعل الحياة
حلوة . . لو أردت . .

ونخرج صديق . . نخرج من بيتى ونخرج من حياتى كلها . .
فقد سافر إلى ايطاليا ، ليقم هنالك . ولم يبعث برسالة واحدة
لأحد أصدقائه جميعا . . ويبدو أنه نزل فى « نهر النسيان » ليستحم . .
فأغرق كل ماضيه ، ولم يبق له إلا حاضره وإلا عروسه كاترين . .

ونظر وراءه !

وقد تذكرت قصة قديمة ترجع إلى أكثر من ثلاث آلاف
سنة . . قصة فتى وفتاة كانا حبيبين ، وكانا يتنقلان بين
الوديان والغابات والأنهار والبحار . يغنيان أغنية الحب السعيد . .
وكان الفتى ينظر إلى أوراق الورد ويتطلع إلى شفتى حبيبته وإلى
مياه البحيرات الصافية ثم يتلفت إلى عيني حبيبته ، وإلى الفصوص
الناعمة وينظر إلى قوام حبيبته . . وفي لحظة أغمض عينيه وراح
يتأمل السعادة التي تغمر قلبه ، وفي هذه اللحظة زحف ثعبان هائل
ولدغ حبيبته . . فسقطت جثة هامدة . .

وانتقلت الفتاة إلى عوالم الأموات . .

وأما الفتى فراح ييئ شكواه للعنينا كلها . . لقد كان صاحب
نأى عجيب ، كان إذا نفخ فيه توقفت المياه في الأنهار وأطلت
الأسماك بروؤسها ، ودنت النجوم من الأرض . . ووضع القمر
قناعا من السحاب الأسود ، والطيور تركت بيضها وراحت
تحوم حول رأسه ، والحشرات تركت أحجارها ، والوحوش
هجرت أوكارها . . كلها تسير في موكب حزين وراءه وهو يبكي
على محبوبته التي انتقلت إلى عالم الأموات ، على غير موعد ،
وقبل أن ينعم بها . .

وضاق الفتى بوحده وضاق بالطبيعة التي تبكى حوله ، تبكى عليه وعلى محبوبته . . وقرر الفتى أن يذهب إلى عالم الأموات ، وأن يحمل الناي السحري في يده ، وأن يستعطف آلهة الموت وأن يناشدهم الشفقة بحييته التي انتقلت إليهم وهي ما تزال شابة . .

وأمسك الناي في فمه وراح ينفخ ، فانفتحت له أبواب عالم الموت وأضاءت له السرايب المظلمة ، وتزاحمت الآلهة حوله ، وراحت عيونهم تذرف دموعا من حديد ونار . . وسألوه : ماذا يريد الفتى ؟ فقال : أريد حييتي التي أفرح بها . . أريد التي انتقلت على ناب الأفعى إلى عالمكم . . وأنها ستعود إليكم يوما من الأيام . . . وأنا كذلك سأعود إليكم . .

ورقت له قلوب من حديد ونار . وقالت الآلهة : سردها إليك حالا . . ولكن لنا شرط واحد . .

وقال الفتى متلهفا : أننى أقبل أى شرط . .

قالوا : أنها ستسير وراءك في هذه السرايب الطويلة . . ولكن لا تنظر وراءك قبل أن تبرح عالم الموت . . لا تنظر وراءك أبدا . . وفرح الفتى وسار في السرايب الطويلة . . وهو يحدث نفسه بأن سعادته قد ردت إليه . . وأنه سيطير بها في الهواء . . وأنه لن يمشى معها على الأرض . . فالأرض تملؤها الأفاعى والوحوش . .

وأنه سيركب معها النهر والبحر ، فالأسماك كلها صديقاته وكلها
تعشق ألحانه . . لن يسير معها على الأرض فكلها أنياب وأظافر . .
. . وفي فرحته وسعادته خائنه رقبته ، فإذا به يتلفت وراءه وإذا
به يرى حبيبته وهي ترفل في ثوب شفاف أبيض . . ولكنه لم يكده
يرأها حتى تلاشت . . وحتى رأى نفسه خارج أبواب عالم الموت . .
حزيناً كما كان ، وإذا الناي في يده يصبح قطعة من الحجر ، وإذا
السماء ترميه بالوحل والنهر يرميه بالرمل ، والحشرات تهرب منه ،
والوحوش تزأر في وجهه ، وإذا ليله بلا قمر ، ونهاره بلا شمس ،
وحياته بلا أمل ، وإذا هو انسان بلا صديق . . والدنيا كلها
أعداؤه . .

عذاب نانسى

هذه امرأة عجوز قد حنى الزمن ظهرها ، وجعد وجهها ،
وأثقل مشيتها وأصاب بالرعدة العالم الخارجى أمامها ، وأخلى من
الأسنان فكها ، ولكن الزمن لم يقو بعد على أن يحطم قلبها ،
فهو ما يزال حارا ينبض بالشفقة ، عامر بالحنو على « نانسى » تلك
الفتاة الصغيرة التى ماتت عنها أمها فى بلد غريب ، فلم تجد من
برودة الغربة إلا دفأ قلب العجوز . . ونانسى . . هذه الصغيرة
لم تتعلم عن أمها شيئا إلا ماسمعه من تلك الشفتين المرتجفتين ،
شفى العجوز .

وفى ذات يوم جلست العجوز ، وأمسكت بصورة أم نانسى
التي ماتت منذ سنوات طوال وقالت : لقد كانت أمك يانانسى
جميلة حقا . وكان جمالها حديث الناس . جميعا . كم من الشبان فتنوا
بعينها السادرتين ، وكم منهم هام بشعرها القاحم المسترسل ، وكم
منهم تاه فى مشيتها الساخرة التى كأنما هى إيقاع موسيقى خالد . .
آه يانانسى لو عاشت أمك لراك . . أنت التمثال الصغير . . كل
شيء فىك يذكرنى بأمك . . صوتك ذو « البحة » البديعة ، وشفقتك
اللتان ضمتا على إصرار وقوة .

وسكنت العجوز وراحت تقلب بعضا حديدية النار التي
توهجت في القرن ثم مضت وقالت: أن أخوف ما أخافه يانانسي
أن أتركك وحدك ، وأنت مازالين في الثانية عشرة من عمرك
الذي أرجو أن يجعله الله مديدا سعيدا . . . إنني الآن شارفت الثمانين ،
وأن علي لا تفتأ تعاودني ، ولكنها في هذه المرة قد فافت كل مرة
ولأنها لا قاضية علي ، وحينئذ يا ابنتي أتركك لعناية الله
وحنان أبيك . .

ولم يقبل الحريف برياحه وسحابه حتى سبقت مواكبه
الحزينة إلى عالم العدم تلك العجوز التي كأنما كانت علي موعد
مع نهايتها . .

وبقيت « نانسي » ذلك الملاك الرقيق . . وأنها لملاك حقا . .
وأن أحدا من الناس لم يرى ملائكة قط . ولكن لابد أن تكون
الملائكة كنانسي لها أجنحة رفاقة ناعمة تكاد لشدة نورها تضيء
وتطير وتكاد حركاتها ومشيتها تكون إيقاعا موسيقيا . . .

ولكن هذه الأجفان التي يكاد الدمع يتسرب منها ، لتحمل
الحزن الذي ورثته « نانسي » عن أم لم ترها ، وعن جدة قطعت
رحلتها الكلية في هذه الحياة على عقاقير طبية مختلفة الأشكال
والألوان . انعزلت نانسي عن كل الناس . .

فهي في البيت وحيدة ، بعد أن ماتت أمها وجدتها . . ولا ترى
أباها إلا في نهاية الأسبوع ، فهو تاجر دائم الأسفار والرحلات ..
وأما أهل مدينة « . . . » فهي لا تعرف منهم أحدا . . ذلك أنها
هبطت إلى هذه المدينة منذ شهور ، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة .

أنها غريبة عن المدينة ، عن أهلها ، وحتى البيت قد أصبح
كرها لا يطاق . . . راحت تتلهى في البيت . . وتفر من البيت
إلى الشارع . . ويقتادها الشارع إلى السينما ، وتلقطها السينما إلى
إلى البيت . . ومن البيت إلى الهرم ، إلى ذلك الطريق المظلم الذي
يصعد عاليا ، إلى حيث ترامت المقاعد في ظلال الليل ،
تحرسها همسات شابة وآهات فتية حارة تفلت من أفواه
مرتجفة . . ثم ضاقت بهذه الأماكن جميعا . . أنها تسير مرموقة
من مئات العيون الراغبة . . إنها تمشي والرموش الحامية مسددة
إليها . . والنار العارمة تشوبها من داخلها . . لا تزفر إلا دخانا ،
ولا تنطق إلا صراخا .

وعادت إلى البيت ذات يوم وألقت بجسدها بين ذراعي مقعد
وثير ، وأسلمت نفسها لشراع الخيال الذي أخذ يطوف بها ،
تارة في الماضي الحزين ، وتارة في المستقبل الخفي الغامض الذي
لا تدرى من أمره شيئا ولا تكاد تستغرق في أحلامها المهمة حتى

تنتشلها منها صورة علفت على الحائط.. فاذا ما انمحت هذه الصورة
عن عينها ، لم تفارق ما طبعته هذه الصورة في خيالها . .
لأنها صورة أمها . .

. . لا بد أن تهرب . . لا بد أن تنسى هذا الماضي القاسى الذى
فرض عليها فرضا . . لماذا تعيش حزينة وحدها والدنيا طاغية
بالبهجة ؟ . . لماذا تهرب من كل إنسان يعطف عليها ويهتم بها ؟ ..
ولماذا تبقى هكذا دون شاغل يشغلها .

لا بد أن تهرب من هذا الفراغ الخفيف . . الذى تلمسه فى البيت ،
وفى الشارع ، وفى نفسها وفى عواطفها . . أن قلبها كالطائرة
يرفرف ، ويخلق ولا يجد غصنا يهبط عليه . . أنها تفتش عن أحد
فلا تجد . . هذه حجرات أربع خالية إلا من قطع الأثاث ،
صامتة جامدة . . كأنها رمم بالية . . أن البيت كله كمقبرة جافتها
الحياة . . وحل بها العدم . . أن هذه الأشياء جميعا لا وجود لها .
ولكن نانسى ونانسى وحدها ، هى التى أوجدتها . . فهى حين
تفتح عينها عليها تعطىها وجودها وألوانها وأصواتها . .

فى كل يوم تصحو فيه « نانسى » . . من نومها يصحوا
البيت كله معها . . فهذا المقعد الذى التصق بالحائط قد استحال
إلى زرقته البديعة ، وتلك الساعة الدقاقه قد أصبح لها هذا الوجود

الصوتى . . وهذه الأزهار التى لم تكن لها رائحة ، قد أضحت
ذات نسائم رقيقة منعشة . . كل هذا من لدن نانسى . .

أن « الاحساس » وحده هو الذى يثبت الوجود فى هذا العدم .
أن هذا الاحساس هو نانسى . . كيف تملأ نانسى هذا الخلاء وهذا
الفراغ الذى يخيفها ؟ . . لابد من شىء . .

جعلت نانسى تدخن ، وتدخن على نحو فريد ، فهى تشعل
سيجارة واحدة وتظل تشعل منها سجائرهما طول النهار وطول
الليل . . وتقوم فى الصباح الباكر فترمى فى صندوق المهملات
أكداسا من بقايا السجائر بعضها طويل يدانى النصف ، وبعضها
الآخر قصير . . فسجائرهما لا تكاد تشعلها حتى تلقى بها ، وسجائر
أخرى لا تلقىها إلا إذا احترقت أصابعها . .

وملت السجائر . . وأقبلت على الخمر ، تشربها مع أصدقائها . .
فقد عرفت الآن فى غياب أبيها كثيراً من الشبان الذين يملأون فراغها
دون أن تجد هى نفسها فيهم ما يدفعها إلى الحرص عليهم .

. . أن أى مكان الآن خير من البيت وأن أى انسان خير من
صورة أمها وذكرى جدتها . . وأن أى صوت أحب إليها من
الصمت الحزين فى بيتها ودقات الساعة فى حجرة الاستقبال . .

لقد فتحت صدرها لكل إنسان ورأسها لأية فكرة ، وفها
لأى شراب . . . وأصابعها لأية يد . . .

ضاقَت بالوحدة ، فهي اليوم في كل حفل ، وضاقَت بالصمت
فهي اليوم تملأ أذنيها بكل نغم وكل حديث .

وضاقت بهذا كله . . فهي لاتدري ولا تحس ولا تشعر ، قد
أغرقها الخمر ، وغيبها عن أى شئ وأى لون وأى صوت . أن
الخمر هي التي ترحمها من الوجود ، وتزفها إلى العدم . .

* * *

وما تزال نانسي تتخبط في حياتها . . لاتدري أى شئ تأخذ
وأى شئ تدع حتى تسال الداء الويل إلى رثتها . . فشحب
وجهها ، ونحف جسمها حتى تكاد تكون فكرة مجردة لجسم
ممتلئ وقوام وعنق مشرع « قد كان » .

ولزمت الفراش ، وخيرها الطيب بين الحياة وبين التدخين . .
فترددت واختارت الحياة ، فهي لاتريد في هذه السن ، أن
تذهب إلى حيث ذهبت أمها وجدتها في غلالة السجائر . .

ولكن من الذى يمسك يدها فلا تمتد إليها سيجارة ، ويطبق
شفتها فلا تفتحان للخمر ؟ . .

لا أحد غير نانسي نفسها . . فهي وحدها القادرة إن شاءت
على إن تعيش وهي وحدها التي تسير في سحابة من الدخان إلى
حتفها أن شاءت أن تموت . .

عليها أن تمتنع عن التدخين ثلاثة شهور كاملة ، عليها أن تنسى
أنها كانت تدخن لتحلم وتهرب ، وتملأ فراغها بنفسها . . ان
الكوب الذي يمتلئ بالهواء . ولا يمتلئ بشئ آخر . لقد ملأته
دخاناً فما أجدى ، وملأته خمرًا فما أجدى . .

* * *

. . هذه هي نانسي ممددة على فراش تحف به الممرضات ، وهذا
هو الطبيب يجلس إلى جوارها ، وينظر إليها ، ثم ينظر إلى شاب
جلس على مقعد يحمل في يديه طاقة من الورد . نسي أن يضعها
إلى جوار نانسي . . ويعود الطبيب إليها ويربت على خدها ويقول :

يا ابنتى . . أننى لا أكلفك المستحيل . أريد أن تكفى عن
التدخين ، لأدري لماذا يفكر الشباب تحت سموات ملبدة .
بالدخان ولماذا لا تستطعمون إلا الماء الملون ؟

وتتململ نانسي . . وتتحرك في فراشها وتتلو وتقول : حياتى
يادكتور . . جدتى ، أمى ، أبى . وحدتى . عزلتى . شبائى . .
أنا يا دكتور . .

— يا ابنتى أريد أن أحبك الحياة . . لتعودى كما كنت .

— إننى لن أكون غير الذى كنت . أن الحياة كقوس قزح ،

لا تظهر قوية حية صارخة إلا في سماء من السحاب الداكن . .
أنى أخلق ألوانه السحاب لا عيش . .

— ابنتى . . أمرك بيدك ، حياتك بين أصبعيك . . أن لفافة
واحدة تغريك بواحدة أخرى . .

* * *

يخرج الطبيب ويشير إلى الشاب الصامت الحزين أن يتبعه
. . ويغلق الباب وراءه ويلتفت إلى الشاب ويقول له :
أنت أخوها ؟

— بل خطيبها . .

— منذ متى . . ؟

— منذ أسبوعين .

— ولم تفلح في إقناعها ! !

— أبدا . . هل مرضها خطير إلى هذا الحد ؟

— خطير يا ولدى . . أننى خيرتها بين المرض وبين الطبيب . .
المرض فقد ناصبته العدا . . أن الموت كثيراً ما يغرى الناس بالراحة
من الحياة .

— لا أمل في نجاتها . . ؟

- لقد شممت رائحة السجائر في يديها وفي فمها . .
- ولم يكمل عبارته حتى دنت منه إحدى الممرضات ، فبادرها قائلاً : هل طلبت إليك بعض السجائر ؟
- لا . . لن تطلب بعد اليوم . .
- . . .
- وأكفهر وجه الطبيب ومال إلى الشاب يعزبه وقال : ولدي . .
- لقد كانت تملأ حياتك . . فأجعل ذكراها تملأ هذه الحياة . .
- .. وألا تكررت المأساة معك .
- بل سأعيش في هذا الفراغ . . أنا الذي سأملأ هذا الفراغ ..
- بم ؟
- بالفراغ أيضا . . سأذهب إلى الدير !
- . . .

أم عباس

صديق اسمه عباس ، وهو شاب خجول جدا . كثيرون يعرفون اسمه ويعرفون قصصه وحكاياته في باريس . أنا أشهد أن عباس هذا كانت الفتيات تعانقه بالقوة ، وقد رأيت فتاة باريسية جميلة والله العظيم ، تهددنا جميعا بأننا إذا لم نسمح لها بتقيل عباس فستلقى علينا جردلا من النيذ الأحمر . .

وتقدمنا الواحدة وراء الأخرى نرجوه ونقول :

يا عباس يا حبيبي أملك داعية لك . . يا عباس الغسيل والمكوى هنا غالية جداً . . في عرضك . .

وعباس هذا صعيدى . طويل القامة أسمر اللون أسود الشعر أزرق العينين وكان يحسدنا على أننا نتكلم الفرنسية أما هو . فلا يعرف كلمة واحدة . .

واختفى عباس ولا أعرف عنه شيئاً ، وأخيراً ظهر أول أمس ليروى لى أغرب قصة حب وزواج سمعتها في حياتي . .

سألته : انجوزت يا عباس ؟

فأجاب : طبعا . . وأنت فكرك أنى حافضل مستنيك كده لحد
 ما أموت . . أنا قلت أجوز الأول . . إيه رأيك . .
 قلت : طيب مبروك . . طبعا ليس لي رأى . .
 قال : مبروك على إيه . . دانا أجوزت من زمان جوى . .
 ولا مبروك ولا غيره دى كانت وجعة مهيبة . .
 — ليه يا عباس ؟

عباس هذا وحيد أمه . وأمه غنية عندها أرض وبيوت وفلوس
 وطيبة جدا . طلبت منه أن يتزوج إحدى قريباته . ولكن عباس .
 رفض قائلا : كلهم زى الرجالة . . اللي دراعها غليظ جوى
 عامه زى الفتوة . . واللى شلاضيها كبيرة . .
 وكانت أمه لاتغضبه . وإنما كانت تسكت وفي نفسها تقول :
 بكرة ربنا يهديه .
 ويظهر أن هداه فعلا . فكانت إذا عرضت عليه فتاة سكت
 واستمع وراح يسأل عنها فكانت أمه تقول له : هذه بنت
 عائلات . . وهذه يتيمة الأب والأم . . وهذه متعلمة . .
 وهذه لاتخرج من باب ولا تطل من شباك . . وهذه ساقاها
 كالقشطة . . وهذه فيها صغير . . وهذه تحبه من يوم ولدت . .
 ولكن الأم لم ترض بسياسة الصمت . . فقد اكتشفت بعد ذلك
 أن عباس « بياخذها » على قد عقلها . . ولكنه لن يتزوج .

واهتمت الأم إلى سياسة أخرى . . ففاجأته بفتاة في البيت تدخل
 خلصة وتسلم عليه وتقعده ثم بعد لحظة تخرج . . أما عباس فكان
 يضع وجهه في الأرض . . فهو يخشى ولا يصح أن يرفع الانسان
 عينه في عين واحدة ست . وبعد أيام يفاجأ عباس بأنه مدعو
 إلى عشاء . . وتدخل فتاة كالفتاة الأولى وتقدم الحلوى أو الشاي
 وتخرج . . وعباس وجهه في الأرض . . وأمه تقرصه في رجله
 لكي يرفع عينيه ولكن عباس يتحمل القرص ويسكت . .

وفي يوم يزور عباس أخته المريضة فيجد عندها فتاة تبخلق في
 وجهه جيداً . . ويندهش قائلاً في نفسه : شوف ياخوى . شوف
 البنت عاتكلمني كيف . . أنا أجوز الفاجره دي . .

ولكن عباس استطاع أن يلاحظ الشبه القوي بين الفتيات
 الثلاث . . وفي نفسه قال لا بد أنهن اخوات أو قريبات . ولم
 يعرف إلا منذ وقت قريب أن هؤلاء الأخوات الثلاث لسن إلا فتاة
 واحدة . . تظهر كل يوم في شكل وفي ملابس خاص . . أنها أفكار
 أمه العبقريّة . ويضرب عباس كفا بكف ويندهش كيف أن أمه
 الغلبانة هذه . . تضحك عليه ، ويقول : أن كيدهن عظيم . .
 الولية اللى ما خرجتشن من أوضة النوم تعمل الملاعب دي . .
 والله عملتها يا أم عباس !

ولم تستطع أمه أن تقنعه بشئ . . ولم تيأس الأم . وراحت تلح

على أقاربه أن « يعقلوه » وراحت تتظاهر الأم بالمرض لكي تؤثر على ابنها ، ولكن الابن لم يعقل . وليس في حياته أحد . ولم يعرف فتاة واحدة . . ولا قلبه مشغول بأية فتاة أخرى في أى مكان . .

ولكن الصدفة تدخلت في حياته ووقفت كسيارة لورى محملة بمائة نمر وأسد . . فعطلت المرور في حياته . . عطلت المرور بين عقله وقلبه ، بينه وبين أمه . . فلم يستطع أحد أن يقترب من هذه السيارة اللورى . . لأحد . .

كان عباس في القاهرة . . وكنا على موعد . وذهبت في المكان المحدد والزمان المحدد . ولم أجد عباس . وبعد نصف ساعة عاد عباس ووجهه أصفر . ولا بد أن تكون هناك قصة . لم أسأله ولكنه جعل يروى لي القصة . . لقد رأى فتاة جميلة جدا . . أنها جميلة جدا . . إنها تجنن . . وفي لحظة أحس كأنه في باريس . . وأحس بثقة عجيبة بنفسه . . وأحس أن هذه الفتاة ستعاكسه ستحايل عليه لكي يكلمها ، لكي يضع يده في يدها . . لكي يعانقها . . ونظر إلى الفتاة هذه النظرة التي تعودها في الشهر الذي عاشه في باريس . . ولكن يظهر أن الفتاة لم تعجبها هذه الجرأة . . فنظرت إليه نظرة قاسية في احتقار شديد . . وأفاق عباس ومشى وراءها لأول مرة في حياته . وراح يقول لها :

— أنت فاكرة أنى باعاكسك . . أبدا . . دانا طالب الجرب ..

في الحلال . . و حياة أمي . . عاوز أجوزك يعني . . أنا صعيدى
جد جوى . . نيتى شريفه والنبي !

وربما قالت له البنت كلاما لم يستطع أن يرويه لى . . ولكن
يمكن استنتاجه . . مثلا لعلها قالت له : ياللا يا شاطر اجرى على
أمك . . باسم . . أنت فاكر نفسك ايه ؟ .

ولكن أعتقد أن نظرات عباس الطيبة الواقعية . . وشكله
الوسيم ولهجته الصعيدية لابد أنها أثرت في الفتاة تأثيرا غريبا . .

وعباس يكمل قصته ويقول : في اليوم التالى ذهبت إلى نفس
المكان ونفس الوقت ووجدت الفتاة بنفس الفستان . حاولت أن
تتجاهلنى ولكننى ضبط عينها وهى تتفادانى . فاقتربت منها
ومددت يدي فرددت هى وصافحتنى ومضيت أقول لها . .
أن كلمنى واحدة . . وأنا لأعرف الفصال . . هوه يعني أنت
لازم تمشى على الكلام اللى فى الكتب . . يعنى لازم أجري وراك
وتضربينى وبعدين أعرف بيتك وأسأل عنك وأجابل أبوك
ولأأمك . . ولأأخوك . . وبعدين أجدم نفسى . . وبعدين ألف
مكالمة فى التليفون وعذاب ووجع جلب . . وشوية هدايا . .
ما أحنا نوفر الحاجات كلها . . والفلوس نخليها لعيالنا . . طبعا
حيكون عندنا عيال . . أنا أحبهم جوى . . عاوز خمسة رجالة . .
اتفضلى . .

وتفضلت الفتاة في سيارة تاكسي كانت إلى جواره . ولم تسأل
الفتاة عن المكان وفي السيارة قالت له إلى أين ؟ . . فقال : حالا
ستعرفين . .

وحاولت الفتاة أن تسأله بوضوح . . ولكن هدوءه ولهجته
الجادة والطيبة التي في عينيه منحت الفتاة الكثير من الطمأنينة . .
وأصرت الفتاة أن تعرف . فقال : سنذهب إلى أمي . . أنها هنا
مريضة وستسافر غداً إلى الصعيد . . أنا عاوزها تشوفك . . الله
أمال . . مش عروستي وألا إيه . .

هكذا اختار الفتاة وكلمها عن الزواج وعن الأولاد ونقلها في
سيارة ليفاجي بها الأم وليفاجي الفتاة نفسها . . وذهلت الفتاة
التي لا يعرف اسمها ولا من أي بلد . ووقفت السيارة أمام إحدى
البيوت في الزمالك . . ونزلت الفتاة ومن ورائها عباس . . ووقف
بواب . . العمارة يحكي عباس بابتسامة . . وكل إنسان يرى عباس
يتسم له . . وعندما اتجه عباس إلى الأسانسير سأل البواب : أمي
فوج . . ومن حذاها . .

وأمام باب الشقة قال عباس للفتاة : شوفي انتي تجولي لأمي . .
أنك بتحبيني . . وأنا حاجول لها أني بأحبك . . والحكاية دي من
خمس سنوات . . واحنا تجايلنا هنا في مصر . . تسألك تجولك أنت
تفسحت معي . . جولي لها لا . . تجول لك أبوك فين ؟ . . جولي
مات . . وأملك ؟ جولي ماتت . .

وقالت الفتاة : تعرف أن ده صحيح .

فقال عباس : صحيح كيف يعنى ملكيش أهل ولا أب
ولا أم . . ماشية على كيفك . .

وانفتح الباب . . وكانت أم عباس فى طريقها إلى الشارع . .
ونظرت أم عباس إلى ولدها وإلى الفتاة وارتمت على صدر ابنها . .
وكذلك الفتاة . . وأشار لها عباس أن يتعد وبلاش الكذب ده . .
وقال لها : دى تبجى أمى . . سلمى عليها بوسى ليدها . .

واحتضنت الفتاة أم عباس فى ذهول وبكاء . .

واندهش عباس جداً . . وعرف بعد لحظات أن أمه وافقت
على الزواج حالا . . لقد كانت هذه الفتاة هى التى عرضتها عليه
أمه من خمس سنوات . . فى فساتين مختلفة . . أما عباس فيقول :
يا أخى أنا مكسوف جوى من أمى . . يعنى أنا طلعت حمار . . الولية
العجوز دى تعرف الملاعيب دى كلها ازاي . .

وعباس لا يصدق أبداً أن الصدقة هى التى دفعت بزوجته هذه
إلى طريقة . . أبداً أنها خطة جهنمية من جهاز الكتروني عجيب
اسمه : أم عباس . . .

ليلة مئة ألف!

فلما كانت الليلة التالية قالت شهر زاد للملك شهر يار : بلغنى
 أيها الملك السعيد أنه لما انعقد مجلس العلماء والشعراء والفنانين
 والأطباء حول الملك قال لهم : أننا اليوم نعيش وراء الأمم ولسنا
 أمامهم . . أننا نعيش « مع » الأمم المتحضرة ، ولسنا « من » الأمم
 المتحضرة . أنهم في القرن العشرين . أما نحن فدون ذلك بعشرات
 القرون . . أننا نعيش في عالم محدود شرقا برباعيات الخيام ، وغربا
 بابن خلدون ، وشمالا بلزوميات أبي العلاء ، وجنوبا بأطلال
 امرئ القيس . . أنهم في الغرب لم يبلغوا القرن العشرين إلا على
 أسنة القرون الأخرى . . على تجارب الأغريق والرومان في الشعر
 والسياسة والفلسفة والعلم والطب والفلك . . أنهم لم يبلغوا القرن
 العشرين إلا بعد أن أصبحت الأرض كروية واسعة منذ أربعة
 قرون. وأن رجلا يونانيا واحدا زار إيطاليا في ذلك الوقت وحدثهم
 عن أدب الأغريق المجهول ، فكانت أعظم ثورة أدبية وعقلية
 وفنية عرفتها الانسانية . . أنه رجل واحد . . وكأنه أعلن كلمة
 السر . . افتح باسمم فاذا الباب يفتح وتزاحم عليه جيوش
 الحضارة كلها ويجب أن تفعل كما فعلوا وإلا أصابنا ما أصاب لاعب
 الشطرنج .

فقال له : وما حكايته أيها الملك العظيم قال :

قرأت قصة لأديب نمساوي اسمه استيفان تسفايج اسمها « اللعبة الملكية » . . تدور حول أحد أبطال الشطرنج الذي سجنوه وحده في غرفة مظلمة فلا أحد يؤنس وحدته ، ولا كتاب يملأ فراغ نفسه وسجنه ، فكان يستعيد في نفسه محفوظاته في الشعر والنثر ويترجمها إلى كل اللغات التي يعرفها ، ويقولها بصوت هامس ثم بصوت صارخ ، وينطقها من الشمال إلى اليمين ، ومن اليمين إلى الشمال . . ثم أخذ يستعرض نظريات الشطرنج التي عرفها والتي قرأها والأدوار التي قام بها حتى نفدت ثروته اللغوية والأدبية . لقد أخذ يجتر ماضيه وهو يرتعد من النهاية المخبوثة التي تنتظره وكاد يصيبه ما أصاب الملك جوعان بن ظمآن .

فقالوا له : وما الذي أصاب الملك جوعان بن ظمآن يا أيها الملك العظيم . . فقال : كان هذا الملك يقرأ كل شيء يجده ، ولا يتعب من القراءة ليلا أو نهارا فأطلق عليه أبناء شعبه هذه التسمية . وكان يحفظ ديوانا من الشعر كل يوم ويقرأ عشرين قصة وقصة واحدة طويلة وثلاثة كتب في الطب والتاريخ والجغرافيا ويستمع ساعتين إلى الموسيقى ويتنزه ساعة في الحدائق وفي الليل يذهب إلى المسرح وفي يوم أحسن هذا الملك أن ذخائره الأدبية والفنية والعلمية ستنفذ قريبا فجمع الحكماء في دولته وخطب فيهم قائلا : إنما جمعتكم هنا

لأقول لكم أنى أخاف أن يصيبني ما أصاب السمك في قاع البحر وما أصاب أتباع بوذا وأتباع كونفوشيوس من قديم . . . فالسمك في قاع البحر له القدرة على الرؤية ، لأن ماء البحر ظلام دامس . فهو لا يستخدم عينيه في الرؤية فلا ضياء هنالك والعضو يموت بموت الوظيفة كما تقولون . وأخاف أن أكون كأتباع بوذا الذين يرفعون أيديهم إلى أعلى سنوات طويلة ، فاذا أيديهم تجف وتنصلب كأنها أغصان الأشجار لأنهم لا يحركونها . وأخاف من مصير أتباع كونفوشيوس الذين يعيشون سنوات طويلة في صمت دائم وفراغ مطلق ، فاذا عقولهم تتلاشى وحياتهم كذلك . . . أنى أخاف أن يصيبني ما أصاب مصر الفرعونية لولا حكمة يوسف عليه السلام أنى أخاف أن أفقد سمعى عندما لا أجد ما أسمع ، وأفقد بصرى عندما لا أجد ما أراه ، وأن أفقد عقلى عندما لا أجد ما أفكر فيه .

ولما حاول بعض التجار أن يقاطعه صرخ فيه الملك قائلا : أنى أستطيع في لحظة عين أن أجعل الشوارع من المطاط ، وأن أبني بمائة مليون جنيه مصنعا للقنابل الذرية كل ذلك في لحظات معدودة ولكنى سأحتاج إلى عشرات السنين لكي أعلم من هو مثلك أيقاطعني وألا يصبق في الأرض كما فعلت أنت . . .

وسكت الملك وقال : أيها العلماء . . . أيها الحكماء انتشروا في الأرض واجمعوا كتب الشعب والفلسفة في عام وترجموها في عام

آخر ، واكتبوها للرجال في عام ثالث . وأعيدوا كتابتها للأطفال
في عام رابع ، وقدموها للفنانين والموسيقين ليصوروها في عام
خامس . . . وإلى اللقاء بعد خمس سنوات . .

وقالت شهر زاد : وبعد خمس سنوات يامولاي الملك السعيد :
جمعهم الملك وتقدم منه كبير العلماء في مملكته وقال لهم : أيها الملك
قد نفذت مشيئتك . ففي مملكته اليوم علم كثير وفن كثير .
ونزلت الدموع من عيني الملك وقبل يدي العالم الكبير .

وأشار إلى مقعد كبير من الذهب والماس وقال : هذا العرش
الكبير قد أعدته بجمال الشعب لحكام الشعب واليوم أستطيع أن
أموت سعيدا . .

وقالت شهر زاد : وغدا أحدثك أيها الملك السعيد كيف أن
الأطفال في دولة الملك « جوعان بن ظمان » كانوا يولدون
وهم قادرون على القراءة والكتابة وكانوا أصحاب العقول معا وأدرك
شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . . .

وكانت النهاية

(نحن الآن في سنة ١٩٨٠ . أنا أجلس في البلكونة وأمدد رجلى إلى الأمام . تدخل قطعة صغيرة وتلعب بشبشي . ويحيى قط ذكر ويلاعبها . . ثم تترك شبشي وتتعلق بالقط وأنا أبتسم . . فقد تذكرت شيئاً . .

وعلى طرف البلكونة أرى عصفورين صغيرين يلتف أحدهما حول الآخر ثم يختفيان بعيداً عنى . . وأرى بعض الأزهار في قصارى الزرع . . وفجأة يعلو صوت الراديو ويكون المغنى عبد الحليم حافظ . صوته غليظ . . وفجأة تظهر زوجتى في روب أحمر ومخزق عليها . وفي قدميها تضع حذاء ورديا وبين الحين والحين تنظر في ساعتها . . وتسحب مقعدا وتجلس إلى جوارى . . وتضع يدها على كتفى وتميل ناحيتى وتقبلنى وأشم رائحة عطرها وأقول : الله . . إيه ده ؟

هى : الله إيه . . ؟ عجبك الريحة دى ؟

أنا : جداً . .

هى : طيب أنت عارف اسمها إيه ؟

أنا : طبعا . . دا أنا طول عمرى متخصص فى الروائح . .
دا عندى مناخير تشم العطور وهى لسه أزهار على الشجر . . طبعا
دى رائحة الماجريف اللى أحبها . .

هى : طيب إيه رأيك أنها مش ماجريف . . دى ريحة جديدة
اسمها « بلاش تبوسنى » . .

أنا : أتجداك فأنا لأخطئ فى الروائح أبدا . . يعنى جاوز اغلط
فى حاجات كثير . . لكن إلا الروائح . . دا أنا فى شبابى . .

هى : حترجع تانى تقول شبابى . . أنا عارفه أنت حتقول إيه . .
حتقول أنه فى مرة من المرات جماعة أصحابك اتراهنوا على الريحة
اللى حطاها ليلي صاحبك . . وأنت الوحيد اللى كسبت الرهان . .
مع أن ليلي غيرت الريحة اللى بتحطها فى اليوم ده . . وعارفه
حتقول إيه كمان . . حتقول أنك كنت بتفتكر البلاد والشوارع
والبيوت بالريحة . . وأنت كنت فاكر نفسك الوحيد اللى بالشكل
ده ولكن اكتشفت أن محمد عبد الوهاب كده كمان . . مش
ده اللى أنت كنت حتقوله . . ؟ عارفه كل حاجة . . أنت إيه . .
خلاص ما عندكش حاجة تقولها . . ؟ أنت خلصت من كل حاجة ؟

أنا : برضه أنت متعلمتيش حاجة منى . . أنت تسرعت . .
وليه رأيك أنى كنت حاقول حاجة غير كده . . كنت حاقول حكاية
عمر ك ما سمعتها . .

هي : مش معقول طبعا .. دا أنت في الشهر الأول من زواجنا
حكيت عن نفسك كل حاجة .. وبينى وبينك أنا كنت مسحورة ..
حكايات وقصص ومغامرات من أوروبا وآسيا وأستراليا وأمريكا
في كل الدنيا .. والسبب الحقيقي يرجع إلى جمال باريس ، وحرارة
روما ، ولمعان برلين ، وألوان طوكيو ، ونظافة أستراليا ، وجنون
أمريكا .. فأنا تزوجتك في زفة هائلة من القصص والمغامرات ..
شعرت في الشهر الأول أنني أمشي على مسرح فوق السحاب ..
أو أنني أتمدد على بساط جميل ، وكنت أراك رغم أن بينى وبينك ٣٥
سنة .. كنت أراك شابا صغيراً ليس عندك شعر أبيض وليس
عندك طقم أسنان .. شاب لا يهمه أحد .. شاب لا يشعر بوجودي ..
شاب أنا متعلقة به .. متعلقة به مع مئات الفتيات .. وكنت أشعر
بالغيرة تأكلني .. وأشعر بالعذاب في حبه .. أشعر أنني في معركة
انتخابية كل المرشحات فيها ملكات جمال .. كنت أحلم بأنك
شمشون الجبار وأنا الفتاة دليله المسكينة .. كنت أحلم بعضلاتك ،
بصدرك العريض العالي .. كنت أتمنى أن أنام علي غدة سوداء
محصوة بشعر صدرك .. ولكن .. أنت عارف ..

أنا : عارف إيه .. حترجعي تاني .. عاوزه تقولي إيه ..؟ يعني
أنت نهار ماتجوزنا ماكتيش عارفه أنني في سن أبوك ..؟ مش
عارفه أنني أكبر بثلاثين سنة ..؟

هى : بخمسة وثلاثين من فضلك . .

أنا : بخمسة وستين سنة . . مش أنت اللى كنت بتقولى لى :
 باحبك ... باموت فيك . . مش أنت اللى كنت تقومى من النهار
 تشدى فى شعر رأسى الأبيض . . مش أنت اللى كنت تقصى
 شعر رأسى الأبيض . . ؟ دلوقت إيه اللى حصل . . ؟ اتغيرت ..
 خلاص . . قرفت منى . . . بقيت كخه . . ببيع . . كل ده بعد
 شهرين . . ؟ إيه مالك ؟ . . ناقصك إيه . . ؟ عاوزه إيه . . مين
 اللى منعك تتجوزى عيل صغير فى سنك . . ؟ أنا اللى أخذتك
 بالقوة . . ؟ أنا اللى سميت صوابك وحطيتها على قرص التليفون
 وخليتك تطلبينى طول الليل وطول النهار . . أنا اللى كنت بقول
 أن سماعة التليفون هى المخلدة اللى بانام عليها ؟ أنا اللى كنت باقول
 أننى سأنتحر إذا لم أتزوجك . . أنا اللى كنت باقول أن البنت تبقى
 مغفلة إذا تزوجت شابا فى سنها . . لأن الشاب سيعطيها الجنس
 الذى لاتحبه ، ويحرمها من – الحنان الذى تحلم به . . ؟ ده مش
 كلامك . . كل ده نسيته . . وبعدين لك عين تتكلمى . . ؟

هى : اسمع . . كلام فارغ مش عاوزه .. أنت فاكر نفسك إيه ؟
 أنا ماجبتش حاجة من عندى . . أنا كنت تلميذة فى مدرستك
 يا أستاذ . . أنا فتحت عينى على مقالاتك . . فتحت قلبى لكلامك
 عن الحب . . كلامك عن الحنان . . عن الحرية . . كلامك عن النعيم

الذى تحلم به الفتاة ولا تجده إلا فى أحضان رجل لافى أحضان شاب .
 مش هو ده كلامك . . ؟ تفكر اعمل إيه . . ؟ تفكر أنت كنت
 تعمل إيه لما كنت فى سنى . . كان عمرى ١٧ سنة لما كلمتك . .
 لما شفت صورتك فى الجرايد . . لما سمعت صوتك فى الراديو . .
 لما المذيع سألك إيه أنت لسه عازب . . أنا لسه فاكهه صوتك . .
 أنا لسه سامعه صوتك الهامس وأنت بتقول : والله مفيش نخت . .
 مفيش قسمة ! أنت فاكهه لما مذيع تانى قال لك : تفكر أن واحد
 فى سنك ممكن يتزوج ؟ فقلت له أنت : اعتقد أنه ممكن جدا وأنى
 أفكر فى هذا جدنيا ؟ مش عارفه إيه اللى حصل لى فى اليوم ده .
 حسيت أنك بتكلمنى . . أنك بتنادينى . . أنك عاوزنى . . ولم
 قلت لك الكلام ده ، قلت لى : ممكن تكونى أنت . فاكهه لما
 شفتك . . فاكهه لما كنت مكسوف زى تلامذة المدارس .
 أنا لا أنسى اليوم ده . . شعرك أبيض ووجهك أحمر . . وقطرات
 عرق على وجهك . . كأنها دموع عقلك . . أو كأن الدم كان يغلي
 فى وجهك حتى أذاب الجليد الذى يتوج رأسك . . آدى ياسيدة
 اللى حصل لى . .

أنا : اسمعى بى . . أنت تلمى نفسك وتنكتى ياقليلة الأدب . .
 افرضى أنى مش جوزك . . افرضى أنى أبوك . . حد يكلم أبوا
 بالشكل ده . . مش عيب برضه . . أسكتى . . هاتى لى اللوا . .

هي : ياريتك زى أبويا.. ياريتك زى جوزى .. ياريت عندى
دوا زى اللى أنت بتاخده .. دوا يشفينى ! .. دوا يريحنى .. دوا..

أنا : الله .. يريحك من إيه ..؟ أنت طلعت فيها قوى .. إيه ..
عاوز أعرف ناقصك إيه ؟ عاوز أعرف أنت بقى لك كام يوم
بتكررى النعمة دى.. إيه اللى حصل .. حاجات غريبة ملاحظها
وساكت وأقول ياواد اسكت .. مفيش داعى لسوء الظن ..

هي : عاوز تعرف إيه اللى ناقصنى .. ؟

أنا : طبعا ..

هي : ليه .. عاوز تعرف ؟ اشعنى النهاردة ؟

أنا : كل يوم مش النهارده بس .. مش جوزك ؟ مش حبيبك
أنت بتغمضى عينيك .. مش عاوزة تشوفى شكلى وأنا باقول
كده .. ؟ عاوزة تحلمى بواحد تانى .. أنت طبعا عاوزة تسدى
ودانك .. لكن أبدا .. أنا حافضل أقول لك الكلام اللى زى
السم ده .. حيعمل فيك إيه السم ؟ ولا حاجة .. لسه شباب .. والله
أنا كنت مغفل ..

هي : على كل حال مش بس أنت اللى مغفل .. تحب بقى أقول
لك إيه اللى ناقصنى ! .. ؟ مش حقتدر عليه .. لكن مش
حاجتي عليك .. استن .. اخرج بره جتك داهية ..

أنا : إيه ده . . ؟

هي : باقول للقطه والقط اللي فايقين ورايحين عالصبح .

أنا :

هي : عارف الشنطة الورق اللي هناك دي .. هو ده اللي ناقصى .
كل يوم الشنطة دي مليانة روشتات ! . . روشتات كتبها دكتور
اعتزل الطب . . دكتور معروف جداً . . وقد درس الطب فى
الخارج . . وهو الآن لايؤمن بالطب . . أنه يداوى الناس بالبخر
والأحجية والفسوخة . .

أنا : إيه ده مش فاهم أنت بتخرفى وتقولى إيه . . ؟ عاور
تقولى إيه . . ؟

هي : مش عاوزه أقول حاجة .. كل اللي أنا عاوزاه هو أنى
أرمى الروشتات دي فى الشارع . . عاوزه أديها للبواب . . أو لبنت
البواب . . اللي تلميذة فى الجامعة . . أنها تكمل دروسها . . أنها
أحسن منى . أنا اختصرت الحياة . . وأعيش الآن مع رجل اختصرت
الحياة .. عارف الروشتات دي تبقى إيه يزوجى العظيم؟ يزوجى
الشاب . . أقصد الشايب . . إنها كتب حضرتك . . كتب حضرتك
الى سهرت فيها الليالى . . ونمت فيها الشهور . . وجعلت من
صفحاتها سريراً من الحرير ومخدرات من ريش النعام ، ومن كلماتها

السودة مصاييح كهربائية ، تتعلق في وحدتي المظلمه . . كل مرض
لقيت له علاج في كتبك . . كل سؤال يدور في رأسي ليه عشرات
الأجوبة في كتبك . . ولكن لم أجده في هذه الكتب . . أنت
وردة لها عطر ، ولكن ليس لها أنف ، أنت شمس تضيء ولكن
ليس للشمس عيون ترى ، أنت بيانو له أوتار وأنغام ولكن ليس
له أذن تسمع . . وإذا كانت له أذان فليس له ذوق . . وإذا كان
له ذوق فقد مات هذا الذوق من زمان . . إن هذه الروشتات
أصبحت مصير مرضى وتعبي . . أنها تشبه النعش الذي دفنت
نفسى فيه . . وإذا كنت أنت إلهي ، فأنا إبليس الذي رفض أن
يسجد لآدم . . سأخرج من بيتك . . من حياتك . . فآكر الكلام
بتاعك . . ؟ فآكر لما حضرتك كتبت على لسان البطلة « نورا »
بطلة مسرحية « بيت الدمية » للكاتب الترويجي أبسن عندما
اقفلت الباب في وجه زوجها لأنه يعاملها كأنها ترايزه أو
كأنها كرسي . . ؟ أنه لا يعاملها باحترام لحريتها وشخصيتها . . ألم
تقل أن هذا الباب قد أخذ صوته يرن ويتردد في . . ؟ وأنا أقول
لك : والقرن العشرين أيضا . . وسيظل صوته إلى القرن الواحد
والعشرين بفضل حضرات الأساتذة أمثال حضرتك . . لماذا
لا تكتبون . . على هذه الكتب أنها صالحة حتى ستة كذا . . ؟ كما
يكتب الأطباء على زجاجات الأدوية وعلى الحقن . . ؟ لماذا
تخدعون الناس .. كيف يستريح ضميرك أمام جريمة بشعة كهذه .. ؟

أنا : بتقولى جريمة .. جريمة مين . . ؟ جريمتى أنا . . ؟
 وجريمتك أنت نسيتهيا . . جريمة الكلام فى التليفون حتى ساعات
 متأخرة من الليل مين اللى كنت بتكلميه حتى الساعة الثالثة صباحا..
 جريمة الاستماع إلى الأغاني والتنهيد والبكاء . . جريمة القفطان
 العريان من الظهر والصدر والبخلقة من الشباك بالساعة والاثنين ..
 أنت فكرك أنى أنا أعمى . . أنت فكرك أنى أنا مش عارف أنت
 بتعملى إيه . . ؟

حكاية دكتور الأسنان والحياطة والحلاق وعيد ميلاد ..
 وخطوبة ميرفت وجواز سهر وولادة أميرة وعزومة آمال . . كل
 ده تشكرى أنا مش عارفه . . عارف طبعا . . وبأقول يمكن
 تعلى . . يمكن لما أعطيك الحرية تعرفى تتصرفى فيها . . وأنا عارف
 أن الحب يموت الكبت والضغط . . ولكن أعرف أيضا أن الحب
 تقتله الحرية الزائدة عن اللزوم . . كام مرة التليفون يتقفل لما آجى
 ارفع السماعة . . كام مرة صاحبائك يقلدون عندما اسعل وأقول
 لهم عيب وأنت برضه بتضحكى وتقولى لى كلهم بيحبوك . . ثم
 تعالى هنا يا قليلة الأصل . . يا أم عين قارعة . . أنت كنت
 حتجوزى مين . . مين بقى فى البلد اللى كان حتيجوزك . . أنت
 ناسية أنت مين ؟ . . أنت نسيته الجرادل . . نسيته القصارى ..
 نسيته الحقنة الشرجية نسيته حاضر يادكتور أيوه يادكتور . .

على عيني يا دكتور . . نسيت أنك كنت بتسهرى طول الليل تردى
على الأجراس فى المستشفى . . طول الليل تشيلى شباشب وتحطى
قباييب وتغسلى الفوط . . نسيت يا حضرة الممرضة . . ؟

هى : لا مانسيتش يا حضرة العيان .. أنت اللي نسيت .. فاكـر
أنت حضرتك كتبت تقول إيه . . مش أنت اللي قلت : أن هناك
نوعا من الحب اسمه حب الطوارئ .. حب فى الغارات الجوية . .
حب يتم فى الخفى .. حب المسافر لمضيفته الطائرة ، حب المريض
للممرضة ، حب رواد الكباريهات للراقصات وبنات الليل . . مش
حضرتك اللي قلت كده . . وحضرتك اللي قلت أن هذا النوع
لا ينفع لأنه يتم فى حالات غير عادية . . فى حالة ضعف الرجل . .
الرجل اللي فوق السحاب . . والرجل اللي ترفعه الخمر إلى مافوق
السحاب ، الرجل اللي فوق السرير . . كلهم فى حالة غير طبيعية
من الخوف والسرور . . مش حضرتك اللي قلت لنا أن حب
التلامذة هو أيضا نوع من الحب فى حالة الطوارئ .. فالتلميذ
فى حالة حرمان شديد ، وفى حالة خوف من الامتحانات ، وخوف
من المدينة الكبيرة التى تعيش فيها ، وعنده احساس بالضيق . .
عنده احساس بانه غرقان وتايه وتافه . . هذا التلميذ يتعلق بأى
خيطة بأى قشاية . . بأى موجه . . والبوصة فى عين المحروم تبقى
عروسة . . وقلت لنا أن هذا الحب لا ينفع . . ولما أنت عارف
ده كله . . ليه اجوزت يا حضرة الأستاذ . . ليه جرجرتنى وراك

وأنا تلميذتك وبنتك . . امش انجري بره جتك الغم . . يا لله بره . .
دي القطه برضه . . ومش أنت اللي كنت بتقول لنا . . اتفسحوا
يا بنات . . اتكلموا في التليفون . . انزلوا في الشارع . .
وافتحوا عينكم على ابن الجيران . . مش أنت اللي كنت بتقول أن
الرجل الضعيف هو اللي يخاف من المنافسة . . مش أنت اللي
قلت أن الرجل العاقل هو اللي يعرف متى يفكر في الزواج ،
ومتى يفكر في أن الزواج بالنسبة له مستحيل . . هل أفهم من كده
أنك راجل مش عاقل . . ثم حاجة ثانية كمان . . حكاية أنى ممرضة
مالها الممرضة عيبا إيه . . مش التمريض عمل شريف . . مش
أنت بتقول أن البنت يجب أن تعمل . . مش أنت اللي بتقول أر
المجتمع أعرج لأنه يمشى على رجل واحدة ، أعور لأنه يرى بعين
واحدة ، مجتمع مالوش ميزان علشان الميزان فيه كفة واحدة . .
ولازم البنت تشتغل علشان تبقى لها نفس الحقوق والواجبات
والحریات والأخطاء اللي عند الراجل وما يجيش في يوم من الأيام
يقول لها : كفاية بقي أنا تعب . . أنا لأنكر أنى شفت الجنة
بعينى . . شفت سورها وبابها ودخلت الجنة أيضا . . وشفت النار . .
أنا حتى ماشفتش النار . . أنا لقيت نفسى فيها . . بالاختصار . .
أنا مش عاوزة اقعد . . شوف لك ممرضة غيرى . . أو إذا كنت
عاوزنى ممرضة لك . . طلقنى وأنا أخدمك من عيني فأنت صاحب
الفضل على . . أنا مانكرش . . لكن وجودى معك يحزننى . .

يجعلنى أتذكر دائماً أنك غير مؤمن بتعاليمك ، أنك غير مؤمن
بفلسفتك — أنك تكذب على نفسك وعلى الناس . . .

أنا : اعقلى . . الناس تقول ليه . .

هى : مايمكش الناس أنا حاقول لهم . . كل الناس عارفه
حاجات كثيرة . . أصحابك وجيراننا عارفين .. أنت ناسى أنك
شتمتى قدام الخدامين . . أنت عارف . . الخدامين دول ليه . .
محطات إذاعة وتليفزيون . . فاطمئن فهم سينقلون قصتك بالحرف
الواحد .. وإذا كانوا حيغيروا فى القصة شوية . . فأنت كمان غيرت
فى كل قصصك . . أنت شخصيا أكبر تغيير فى قصصك . .
أنا عارفه أنك لاتبج الكلام معى . . أنا عارفه أننى تافهه . . أنا
عارفه أنك ندمان . . وعارفه أنك ما عندكش مانع تطلقنى . .
وعارفه أن الناس إذا قالوا أنك طلقتنى لسوء أخلاقى . . فهذا من
رأيك أيضا . أليست المرأة فى نظرك مستعدة دائماً للخيانة بشرط
ألا يعلم الناس ، وإذا عرف الناس فإنها تجعل من الخيانة مبدأ . .
كل ده كلامك . .

أنا :

هى : . . . أنا اعتبر سكوتك موافقة على الطلاق .

أنا

هي : ولكن تعرف مدى حبي لك وإخلاصي السابق لك . .
سأتزوج رجلاً هو الآخر معجب بك جداً . . أنه شاب في مثل
سنى . . وقد قررنا نحن الاثنين أن نكون أحسن تلميذين في
« مدرسة الحب » التي فتحتها منذ ثلاثين سنة . . هل تغضبك هذه
التضحية . . أنت مش بتقول أن المرأة تضحى بالمبدأ من أجل
الشخص . . ومش أنت اللي بتقول أن الرجل يضحى بالمرأة من
أجل نشر تعاليمه . . ، يعني من أجلك . . وأنت يجب أن تضح
بي من أجل مبدأ الحب . . والحرية والراحة والسلام بين الناس

أنا : . . .

هي : هذا الرجل هو الذي سيدخل الآن ويأخذ هذه الروشتات.
هذه الكتب . . سيجي بعد لحظات . .

أنا : زى مايعجبك . . .

هي : تسمحي لي أبوسك في فمك . . فهذه القبلة لن يكون
لها أى معنى زوجى . . إنها قبلة البنت لأبيها . .

« وتدور القطه والقط حولنا . . ويدق الجرس . . وتذهب

لفتح الباب ويكون الداخل حسنين . . أنه سائقى . . إنه يعانق
 الكتب كما عانق يهوذا السيد المسيح . أن يهوذا هو الخائن . .
 ولا أدري كيف أن رجلى داست على ذيل القطة فصرخت وخربشت
 رجلى . . وسالت الدماء وفزعت من منظر الدم وأخرجت المنديل
 من جيبى . . لأضعه على الجرح . . ولكن زوجتى سبقتنى إلى
 المنديل ومسحت به دموعها . ثم مسحت به دمي . . وضغطت
 على قدمي فكنت اختنق . . ولم أشعر بشئ . . لقد تراجعت في
 مقعدى وأغفيت لحظات وفتحت عيني على المنديل فوق قدمي
 وإلى جواره ساعة ذهبية وغويشة ودبلة وبضعة قروش . وصورة
 على الأرض ممزقة . . إنها صورتى ممددا على سرير في أحد
 المستشفيات . . وقد اختفت صورتها هي . . وكانت جالسة إلى
 جوارى . . ونظرت إلى القطة والقط . . وتركتهما في الغرفة
 وأقفلت الباب ورائى واتجهت إلى مكبى لاسجل على نفسى هذه
 المشاعر . . ودون شعور بصقت على الأرض كأننى أضبع نقطة
 لسطور مكتوبة فى الهواء لا يراها أحد سوى

عروب

كان ذلك في الخريف ، وقد تهيأت الطبيعة لمقدمة ، فعلقت
أستارا من الضباب الكثيف ، وتوحدت الطرقات ، وهب عليها
هواء بارد مسموم يمرق من خلال نافذة عربية تجرها خيول
منهكة ، إلى أنف شاب ، متسللا إلى رثتيه فيسعل سعالا عنيفا
جافا يكاد يقتلع أحشاءه ويمزق جنبيه فيضع يده على صا
كأنما يحول بينه وبين بركان من الدم يعجل بهلاكه .

وتتوقف العربية عند بيت قائم عند نهاية الطريق ، وقد انسربت
من نوافذه شعاعات رفاقه من ضوء سادر ، كأنما تستقبل الزائر
العليل . . وينزل ذلك الشاب ويطلق الباب ويتسمع إلى أصداء
طرقاته يلاحق بعضها البعض . وهي تستأذن على الحشرات الصامتة
التي ضمت بين جدرانها أسرة مكدودة من عمال المناجم . يقضون
يومهم يضربون بطن الأرض ، ويستجدون مكنونها من المعادن
يفنون ليلهم في نوم هادئ .

وينفتح الباب ، ويتلقاه رجل فارغ القوام ، تبدو على ملامحه

قسوة الحقول ومرارة العيش ، وروح ينتزع من عينيه آثار النوم ،
ولا يكاد يراه حتى يقول :

— أنت ؟ أهلا بك . ! في مثل هذا الليل القاسي تجيشني ؟

—

— ما بك ؟ أما تزال متعبا ؟ لقد بلغتني رسالتك الأخيرة . .
وأني لباليح الحزن على حالك . . أنك مشغوف تعال اجلس هاهنا
بالقرب من المدفأة فما يزال بها وميض نار . . قل لي ، ولاتؤاخذني ،
لماذا أنت ممتنع عن العمل في أي مكان .

— أي عمل ؟ وأية حياة ؟

— آه . . هذه نعمة قديمة . تذكرني بانسان عزيز على وعليك
وإن كنت لم تره . . أنه أبوك . كان يقول : أن الانسان يجب أن
يكون مخلصا ومؤمنا « بشئ » ما . والحياة من غير إخلاص
أو إيمان لا معنى لها .

— إيمان ؟ وإخلاص ؟ ومعنى ؟ هذه كلمات غريبة وقديمة .

— قد تكون غريبة هذه الكلمات . ولكنها لن تظل كذلك . .
إذا أردت أن تعيش فاجعل لحياتك معنى . أو هدفا . . أذكر
أن أباك . وكان حكما طيبا ، كان يحدث شابا في مثل قلقك وحيرتك
ولأقول بأسك ، فكان ينصح له أن « يستطعم » الحياة — أن يجعل

لمذاقها طعاما ، وأن « يحب » شيئا . . ولكن الشاب لم يطب له
حديث أهلك فراح يسأله : أى حب وأية حياة ؟ فقال له أبوك :
أن تحب عملك الذى تؤديه وحياتك التى تحياها !
— أن هذا الشاب محق فيما سأل .

— هل تستطيع أن تقول لى كيف تعمل تحت سطح الأرض
فتستخرج الفحم والحديد ؟

— هل تريد أن تحقر عملنا . وأنه لعمل شريف تؤديه بصدقة
وإخلاص ؟

— ثم ماذا بعد ذلك ؟

— نعاود العمل من جديد وننصح لأبنائنا أن يقوموا به من
بعدنا ، وهل تظن أن رسالتنا هينة ؟ .

— أبدا . . أن رسالتكم خطيرة ، بالغة الخطورة ، فأنتم
تستخرجون الفحم الذى تدار به مصانع الذخيرة لقتل الملايين
من الأرواح البشرية البريئة .

— لاتنس أننا نؤدى « واجبا » فحسب أما إذا كان بعض الناس
يستخدم الفحم للقتل ، فان الكثيرين يموتون بردا إذا لم نخرجه لهم .
— وماذا لو ماتوا من البرد أو من الحر ؟ ولماذا يعيشون .
وما معنى الحياة . . ؟

— هذه أسئلة أعلم سنفها . ولكن أليس كل شيء في هذه الحياة سنف في سنف . . نعمل وننام . ونأكل ونشرب وتولد ونعيش ونموت . . ثم ماذا بعد هذا كله ؟ إلى أين يذهب هؤلاء جميعاً ؟

— هاها ! إنهم يذهبون إلى حيث ستذهب أنت الآن . إلى الفراش ليستربحوا . . أنك متعب ولاشك . . أذهب واسترح . . هذه حجرتك . . وأرجو لك نوما هادئاً .

* * *

وفي الطريق كان يرمى الناس بنظرات حادة كلها سخرية ودهشة . فهذا حشد متجه يمينا وتلك جمهرة اتجهت يسارا . والكل في عجلة ، وفي حركة كلها يأس وأمل . . مامعنى هذا كله ؟ وإلى أين يذهب هؤلاء ؟ وهذه البيوت القائمة في سكون حتى الفناء . . ماذا جرى لها ؟ وهذه الحركة المستمرة في الشوارع الصاخبة ماذا دهاها . . كل ذلك يدور في رأسه ، ثم يطبق شففيه بغيظ وتجره قدماه إلى بيت كثيرا ما جلس فيه من قبل . . كل شيء قد أصبح الآن « من قبل » . فلم يعد له « بعد » .

وتلقاه فتاته القديمة التي أحبا « من قبل » ورفيقة طفولته الحزينة الباردة . . فلا يكاد تراه حتى تستحيل إلى بهجة ناضرة تبدد حزن الدنيا كلها . ولكنه لا يكاد يراها على هذه الصورة

المشرقة حتى تبيلد نفسه بسحابات الأسى . فيمد يدا مرتجفة فتدرك
أن هناك شيئاً . . . وتقول :

— كنت دائماً أتمنى أن أعانقك وأقبلك لولا الذى يخيفنى من
عينيك وشحوب وجهك . . ماذا بك ؟ . .

— لاتسألينى فقد جئت أودعك قبل سفرى . أننى اعتزمت
رحلة . . رحلة طويلة .

— وستكون وحيداً فى رحلتك . . ؟

— أننى وحيد منذ خلقت . أن أى ماتت ولم أرها ، وأبى
مات ولم أره ، وانخوتى قد استردتهم الأرض ولم أر منهم واحداً .
وعمنى التى كفلتنى ، ماتت قبل أن أبلغ السابعة من عمرى . .

— هذه لهجة غريبة . .

— ما الغرابة هنا ؟ . . كلكم تقولون أن هذه لهجة غريبة أو نعمة
غريبة .

— لابد أن شيئاً قد حدث فى حياتك . .

— أن شيئاً لم يحدث . . أننى هكذا ولاأتصور كيف لا يكون
الناس مثلى . . كيف يعب الناس الحياة عبا ، كيف يفتحون عيونهم
حتى يعميها الضياء ويفتحون بطونهم حتى يملأوها بالنار والحديد . .

لماذا لا يصابون بهذا « القرف » . ألا تعرفين « القرف » . هذا
« الغثيان » . . ألا تحسبن أن روحك تطفو على جسدك . . هذا
... -

- هل ترين هذه الكراسي ؟ . . أننى أدون فيها أحساساتى . .
ولكن لماذا ؟ لاشئ إلا لكى أوهم نفسى أننى قادر على أن
أسجل شيئاً . .

- لقد كفرت بأشياء كثيرة . . وبالحياة كذلك ؟ .. أية حياة ..
- حياتك أنت على الأقل . .

- أننى لا « أعرف » ماتقولين .

- وهذا هو عين الخطأ . . فى حياتك كلها .

- تقولين خطأ ؟ ..

- طبعاً . . يجب أن تفرق بين الحياة وبين « المعرفة » .
يجب ألا تقضى أيامك كلها تفكر فى « معرفة » الأشياء . . فتضيع
عليك « الحياة » . . يجب أن « تعيش » حياتك . .

- كلام كنت أقيم له وزناً « من قبل » . .

— « من قبل » ماذا ؟ . .

— « من قبل » أن أخذ قرار الرحلة الطويلة . . لقد آمنت أنت وغيرك بما كفرت به . . آمنت بهذه الحياة . . أو بالحياة وأنتم في غمرتها تخادعون أنفسكم وتغالطون وتكذبون . . .

— اسمعنى . . أظن أن ثقافتى تسمح لى أن أقف منك موقف الند
— لن تقف بعد اليوم ندا لى ولا عدوا ولا حيبيا . . ولن تكونى
لى ولن أكون لك شيئا . . .

— سأكون مرارة على لسانك . . « وقرفا » لنفسك . . ولكن
لن أكون لك شيئا .

— أنى أحسست منذ زمن طويل أن لى رسالة تستصرخنى
انسانى أن أؤديها لأننى أستطيع أن أجعل منك فتى يقول للحياة :
نعم ولييك . .

يل « نعم وصحقا لك »

— أنك متعب تماما . . لامن شىء ولكن من نفسك . .

— وأنت مستريحة من كل شىء ومن نفسك ؟ . . عهدى بك
قلقه . . فاذا حل بك حتى أصبحت هادئة على هذا النحو . . أى .
سلام ذلك الذى تشرق شموعه فى قسبات وجهك كأن شعرك

الأسود وهو ينزل على جبينك رهبان تراحوا على النور المقدس . .
- إننى فراشة أحبت وعبدت « شيئا ما » فى صمت وهدوء . .
أما أنت فقراشة أيضا ولكنها انكرت الضياء فضلت وحارت . .
- هنيئا لك بعالم خلقت لتكونى فيه . ووداعا أننى حددت
مصري واخترته .

- أننى أعرف إيمانك بالعقل على الأقل . .
- لقد سلمت للعقل حتى جمدتنى برودته ، واستسلمت للقلب
حتى أحرقتنى حرارته .
- فأنكرتهما معا ؟ ماذابقى لك ؟ لقد صغيت حسابك مع الحياة
- تماما . لقد أصبحت « ماضيا » لم يعد لى حاضر ولا مستقبل ،
ولاشئ يربطنى بأحد ، وبعد لحظات سأستحيل إلى « شئ » وداعا.

* * *

ويبلغ الشاطئ . .
ويهرول نحو زورق ، ويفرغ كل مامعه من تقود ومتاع فى الماء
. . ويمضى بزورقه مذهولا « شاردا » ويفتح فمه لرشاش
البحر . . كأنما يريد أن يتذوق آخر لحظة من الحياة . . ويسقط

في قلب الزورق من جديد ويمسك بالمجدافين كأنما يتحاشى
الفرق ، ثم ينتصب واقفا ويهوى بنفسه إلى الماء . . فيلطمه
الموج ويركله ويضممه في التو .

وكان شيئا لم يحدث وكان مشكلة لم تحل ، وكان حياة لم تنته
وقرارا لم يتخذ !

حوار مع الزعيم

— واليوم كيف حالك ؟

— ابدا .. لا جديد .. اليوم كالأمس والأمس كالغد .. أن
الإنسان الحى هو الذى يتغير ، أما الميت فلا يتغير .. وليس له
يوم ولا غد ولا أمس .. فالأيام عنده سواء !

* * *

حوار أسمعته كل يوم عندما ما أراه يسير فى شارع سليمان باشا
رائحا غاديا ، يرفع يده بحى سيارة منطلقة أو سيارة واقفة أو فتاة
تطل من أحد الفنادق أو يعتذر رقيقا عندما تصطدم ذراعه بأحد
المارة ، ويضرب الأرض برجليه كأنما يضرب رؤوسا تطل إليه
من تحتها ، أو كأنما يمر بخاطره شئ يكرهه ولا يريد أن يخرج
من تحت الأرض .. من تحت التراب بعد أن دفنه منذ وقت طويل
.. أنه يشغلك إذا ، سرت معه ، يشغلك بنفسه عن كل شئ ..
ولا يسعك إلا أن تمد يدك إلى المظروف الكبير الذى يحمله معه
دائما .. مظروف قد امتلأ بالصور .. صور ورسائل الفتيات

.. وبعض «الوصلات» والتوقيعات وأرقام التليفونات وبقايا
متاديل عليها أحمر شفاه ..

لا يفارقه هذا المظروف ولا تكاد تنظر إليه حتى يقدمه لك
وعلى وجهه إيتسامة زوره من حين لآخر . !

وحين تنظر إلى الصور يستفص هو ، وحين تمر بأصابعك
عليها كأنما تمر على طلاس تبعث فيها الحياة .. فاذا أحمر الشفاه
ينتقل من المتاديل إلى شفتيه ووجتيه ، وإذا زجاجات الخمر
التي ملأت الصور تنتقل إلى رأسه فاذا هو في نشوة .. أن كل ورقة
تعيده إلى الحياة ، وكل زجاجة تعيده إلى الماضي ..

هذه الرسائل الصفراء كأنها أوراق الخريف في حياته تساقطت
كما تساقط الشعرات البيضاء من رأس العجوز .. لقد تعرت
من الورق ومن الشعر ، فهو اليوم أصلع الحياة !

وأسأله : كيف حالك ؟

فيقول : اليوم أحسن .. تسلمت رسالة من بيروت .. إنها
من «ماريانا» التي كانت في الموسم الماضي ترقص هنا في
القاهرة .. أنها تذكرنا بذلك اليوم الذي شربت فيه أو شربنا فيه
معا .. فدار العالم كله من حولي ، وأغنى على المقاعد فراحت

تُمَابل وتُهى فوق رأسى . . وتقلت بعدها إلى الفندق . . وأفقت
على طاقة الورد وبطاقة منها قبل سفرها كلها تمنيات . . كلها
تمنيات طيبة . . آه أين أيامها ؟

وهذه الرسالة وغيرها كثير يتساقط عليه من باريس وروما
ولندن ومونت كارلو . . كأنها ألغام تظل عائمة دون أن يراها
فاذا رآها اصطدم بها ، فتنفجر عيناه بالدموع ، وقلبه بالنار ،
وتسبح الدنيا حوله في دخان كثيف يحجبه عن أصدقائه أياما
طويلة !

— وهذه . . وهذه أنظر إليها !

— ما لها هذه ؟

وتمتد يدي إلى صورة فتاة في العشرين من عمرها شعرها أسود
طويل ، ووجهها شاحب في غير مرض ، وإبتسامتها معلقة
على وجهها . . تشد حاجبيها وترفع شفتيها . . ويضع هو أصبعه
. . على صدر شامخ الثديين . . ما لها هذه ؟ لا أعرف إلا أنها
جميلة . . ولكنني لم أفهم شيئا من وجهها الحزين ابدا . .

ويمسك الصورة التي مسحت معالمها أصابعه ويقول : أنها
مسكينة أننى أخشى عليها من الذئاب . . أنها ليست حملا وديعا
كما تتصور ، ولكن كثيرا ما ثارت وكثيرا ما قامت بدور

الذئاب وكنت أنا الحمل الضعيف .. آه .. أكلتني وشربتني
ونزعت جلدي وكادت تنزع روحي من جسدي ، أو
تنزع جسدي من روحي التي كانت تقاومها .. ولكنني كنت
دائماً طعاماً مرا ، لا تسيغة كثيراً ، فكانت تردني إلى الأرض
.. إلى الحياة .. ولا أخفى عليك أنني كنت أجد متعة في هذه
الرياضة .. أنها رياضة .. إلا تظن ذلك ..

.. —

— أنها ثورة وادعة ، أو وداعة ثائرة .. مسكينة .. ماتت
أمها وهي في السابعة عشرة من عمرها .. في السابعة عشرة
تستطيع أن تتخيل أي شباب وأية حيوية ساذجة وأي نقاء وصفاء
.. ماتت أمها وبكت عليها حتى نفدت دموعها ، كما نفدت
أموالي ، فأصبحت تعيش بدموع الآخرين .. هل فهمت ؟ ..
أنني أبكي لها .. وكثيرون غيري يكون لها .. ماتت أمها ..
وأبوها عجوز وأخواتها صغار .. فراحت تدق كل باب ،
وكانت تفتح الأبواب بصدرها العالي ، فاذا كل باب يصبح
ذراعين .. يصبح ذراعى رجل .. ذراعى ذئب .. هل فهمت ..

.. —

— لعلك تسألنى لماذا لم أتزوجها .. آه .. لم أتزوجها لأن أحداً

في هذا البلد ، بل في الشرق كله لا ينسى الماضي ، لا ينسى الماضي
لإنسان .. ولكني أحبها . لو كنت في أوروبا لتزوجتها .. ولكن
هنا ؟ ..

— ولكن أين ..

— أين المال .. قد يكون سؤالك هكذا .. أنني مثل الرجل
اليوناني الذي عذبه الآلهة ووضعت أمامه حجرا ضخما على هيئة
برميل وأمرته أن يصعد به إلى قمة الجبل فكلما دفعه إلى أعلى ، عاد
به الحجر إلى أسفل ، وكلما قارب القمة ، هوى إلى السفح ..
أن همومي كلها هكذا .. كبرميل ، ولكن من البارود لا من
الحجر ، وأنا أبحث عن شرارة تنسفي مع البارود .. وحينئذ
أصرخ قائلا : يارب احرقني أنا وهمومي معا .. لا بد أن أرى
طيبيا يعالجني .. أنني كالإنسان البدائي قبل أن يعرف النار ..
قبل أن يستخدم النار ويجعلها نورا .. كأن ليله طويلا ، ولكن
ليلي أنا أطول .. أطول بكثير ..

* * *

لا جديد في حياته .. ولا جديد في حياتنا معه ..

إن كل ما يقوله قد عرفناه : وكل ما لم يقله نستطيع أن نعرفه
حتى أصبحنا نجلس صامتين .. فلم يعد هناك شيء نقوله أو يقوله

.. إذا ضحكنا معه .. ذكرناه بـماضيه فيبكي ، وإذا أسفنا له ،
 ذكرناه بـماضيه فيبكي . وإذا سكنا ذكرناه بأيام لوه ومرحه
 وسيارته وفتياته وسهراته ، فيبكي .. لم نعد نحن نطيقه وثقلنا
 عليه ، وثقل علينا .. يضيق بماسح الأحذية إذا أتجه إلينا ، ولم يتجه
 إليه ، وبالجرسونات إذا حيوه عاطفين ..

كل شيء يرمي به إلى ماضيه الذي يحمل معه صورته ورسائله
 وتوقعاته ووصولاته وودمعه وآهاته .. ولكنا جزء من ماضية
 نحوم حوله ، ونحوم حولنا ، كما يحوم القاتل حول جريمته ..

* * *

وفي يوم كان يسير عابرا الطريق جاءت سيارة لصديق قد
 أراد مداعبته فصدمه وألقى به إلى الأرض .. إلى المستشفى عشرين
 يوما .. أنفتح رأسه على عالم جديد .. ، وكأنما حين سقط
 على الأرض ، سقط على الحجر الذي يحمله فأصبح خفيفا حرا
 من ماضيه .. أو كأن هذه الصدمة الهائلة زلزال أسقط
 البيوت والجسور وأغرق الناس في حياته !

ففي المستشفى أحس أنه وحده ، وأن العالم كله بعيد عنه .. وأنه
 أخذ يرى الناس وهو بعيد عنهم .

والإنسان لا يرى الناس بوضوح إلا إذا بعد عنهم وأحس أن

الناس كلهم مشغولون عنه لايه ، ويعملون لأنفسهم ، لا له . .
 أين أصدقاؤه وصديقاته وأهله . . وراح العالم يتضاءل عنده وينزل
 عند قدميه فاذا الكرة الأرضية كرة صغيرة وإذا هو يركلها . .

ويتقلب في فراشه بين ماضيه وحاضره . . ويكتشف أنه يعرف
 أشياء كثيرة يمكن أن يستفيد منها . . أنه يعرف أربع لغات . . وأنه
 يجيد الكتابة على الآلة الكاتبة . . وأنه يعرف مئات الكبراء
 والعظماء والسماسة واللصوص وشاربي الدماء ، وعشرات من قطع
 النشاف الشقرواات اللأئي يمتصصن الدماء والذهب والحرر . . أن
 هذا المستشنى كان بمثابة « المحجر الدولى » الذى أعطى فيه حقنا
 ضد اليأس والثقة بالناس والإسراف وضد الماضى وكل أمراضه
 المعدية . .

ويزوره صاحب السيارة ويعلم بما أصاب ذراعه اليسرى ويقدم
 له بضع مئات من الجنيهات ليبدأ بها عملا جديدا بعيدا عن كل
 ما يحزنه فى أن يضعها فى جيبه إلى جوار قلبه . . أنها رصيد آخر
 إلى جانب رصيده المعنوى الذى أكتشفه أثناء مرضه وجده
 تحت الغطاء . . وجده فى نفسه ، فى جسمه ، فى يديه ، فى عينيه ،
 فى شاربته الدقيق ، فى شعره الذى وصفته النساء بأنه فاتن . .
 ويسحب الغطاء عن جسده ، ويسحب الماضى عن رأسه ،
 ويقف على قدميه ، بعد أن عاش حياته كلها يقف على أيدى

الآخرين ، وسيقان الأخرى . . ويسر إلى أحد شوارع القاهرة
.. بلا موسيقى وبلا نساء ولا خر ولا جرسونات ويفتح محلا
للسجائر . . ولكن أين ؟ في أحد الكباريات .
أنه هو الآخر يحوم حول مكان الجريمة وتحوم حوله صور
الفتيات معلقات في اطارات خمرية وذهبية . . !

وأسأله : كيف حالك يا جورج ؟

فيقول : الحمد لله . . لقد نسيت الماضي ، طلقته ثلاثا ،
عرفت أن المرأة كذب ، وأن الرجل أكثر كذبا من المرأة . .
لقد وضعت بيني وبين الماضي حواجز شديدة ، حواجز قوية !

ولكنها حواجز من الزجاج !

فصل الأول والأخير

(فيلا جميلة بمصر الجديدة . أمام الباب عربية مرسيدس سوداء . وفي داخلها كلب ضخم يجلس في المؤخرة . . وفي المقعد الأمامي سائق أنيق يقرأ في صحيفة . باب الفيلا يفتح . الخادمة تتقدمني إلى سلم ومن السلم إلى قاعة ضخمة ومنها إلى غرفة دافئة . بها لوحات ثمينة . وتشير إلى أن أجلس حتى تحضر الهانم . . وتجيئ الهانم ويدور كلام طويل هذا بعضه :)

هي : يعنى إيه رأيك ؟

أنا : باختصار . وأنا مستعد أن أرد على أى سؤال يخطر على بالك .

هي : أنت تعرفه لهذه الدرجة ؟

أنا : صداقة العمر كله . لقد عشنا في بلد واحد . وكنا زميلين في المدرسة وفي الجامعة . وما نزال حتى الآن صديقين . . وكما قلت لحضرتك . .

هي : بلاش حضرتك دى . .

أنا : وزى ما قلت أنه لا يحتقنى عنى شيئا . إلى أن كانت هذه الرغبة . فأنا أيدتها . . ولكن بعد تردد .

هى : طبعا أنا يعجبني الرجل الذى يتردد قبل أن يتخذ قرارا هاما كالزواج . لأن هذا التردد معناه التفكير والتدبير ومعناه أنه رجل مسئول . وأن المسئولية صعبة . . ولكن . .

أنا : أيوه . . أنا منتظر و « لكن » هذه . . وعلى كل حال ليست هذه هى الأولى . .

هى : كلام الناس . .

أنا : طبعا لابد أن يقول الناس شيئا . . هذه الأفواه لا يمكن أن تتحرك إذا كانت مليئة بالطعام فقط . . لابد أن تمتلئ بلحوم الآخرين . لابد أن تمضغهم . . أن تهشهم . . وبعد أن تمضغهم ترميهم . : لابد أن يتكلم الناس . . أنا أقول لك . . لابد أن يتكلم الناس على الناس . ليه ؟ . لأن هذا يرضى غرورهم . . لأننى عندما أقول أن فلانا هذا حرامى . . وأنه بخيل وأنه كذاب وأنه يخدع الفتيات . . وأنه وأنه . . معناه أننى لست كذلك . . فأى شتيمة لأى إنسان آخر هى تحية لى أنا . . والناس تتعب من إقامة حفلات التكريم لنفسها . . وحفلات التكريم هذه لابد فيها من ذبائح وضحايا . . وهؤلاء الضحايا هم الناس الآخرون . . وأؤكد

لك أن صاحبي هذا أحد هؤلاء الملايين الذين يذبحون ويقتلون
بأسنة الناس وإنيابهم كل يوم . .

هي : من غير شك . ولكن مفيش دخان من غير نار . .

أنا : ولكن فيه نار ليس لها دخان . . هناك أشياء كثيرة
يفعلها الناس ولا يظهر لها أى دخان . . وليس كل المسجونين
هم كل اللصوص . . بل هناك كثيرون لم ترهم العدالة ولم
تعرفهم . . وهناك نيران صغيرة جدا لها دخان كبير جدا . .
والدخان الذى يتصاعد من كوم قش أكبر جدا من الذى يتصاعد
من انفجار قنبلة .

هي : يعنى عاوز تقول إيه . .

أنا : عاوز أقول . . أنه كويس جدا . . وأنه سيكون أحسن
زوج لابنتك . . وأنا أعرفه جيدا . . وهى أيضا تعرفه فقد كنا
نحن الثلاثة زملاء فى كلية واحدة وفى قسم واحد . . وأن كل
ما فعله قبل الآن . . يفعله كل الشبان . . أنه رجل له تجارب ، له
مواقف . . أنه يعرف قيمة ما يقول وما يفعل . أنه قد اختار أبننتك
لأنها أقرب إليه وأحسن من كل الأخريات فى حياته . ولو كان
هذا الشاب من غير تجارب لوقفت إلى جوارك ورفضته . . فأنا
أكره الرجل « الحام » الذى يتقدم للزواج بلا تجربة ، بلا فهم

سليم لنفسه ولزوجة المستقبل .. أكره هذا الطفل الذي يريد أن يكون زوجا وأبا لطفل ..

هى: (وهى تضحك) ولكن أنا مندهشة .. فقد كنت أتصور أن صديقك هذا هو الذى يجئ بنفسه .. لا أن يبعثك أنت .. فهو أكثر جرأة منك ..

أنا : كان أفضل ولكنه لا يستطيع أن يتحدث عن نفسه ولا أن يدافع عن نفسه .. ولا أن يواجه حياة المستقبل ويتشاجر معها من الآن .. على كل حال .. بقى أمر هام هو موافقة العروس .. ما رأيها .. أنا أعرف مقدما رأيها .. فنذ أيام الجامعة كانت تستريح إلى كلامى وإلى ..

هى : وإلى ملابسه .. أنها كانت تفتح حقيبتها وتخرج الإبرة والحيط لتضع الزراير التى تساقطت من قميصه ..

أنا : أبوه .. أنا فاكّر حاجة زى دى كده .. يظهر أنها كانت تفعل ذلك لكثيرين .. لقد كنت أيضا أحد الذين تساقطت أزرارهم .. وأنا أقوم الآن .

هى : (بلهجة جادة جدا) على فىن ؟ .

أنا : مشغول والله .. ولكن غدا سأحضر أنا وهو في العصر
.. إذا وافقتم .. وتكون هي معنا .. ويبقى الكلام بصراحة
وبوضوح ..

هي : أأنا تكلمنا .

أنا : صحيح .. لكن بقي هو ..

هي : هو مين ؟

أنا : مين ؟ صاحبي ..

هي : صاحبك مين ؟

أنا : صاحبي مين أراي ؟ زميل المدرسة والجامعة وزميل أبنك
أيضا ..

هي : مش معقول .

أنا : أيه هوه ؟

هي : طول الوقت أنا فأكراك بتتكلم عن نفسك .

أنا : عن نفسي !!

(وظهرت البنت فجأة ووقفت إلى جوار الأم ووجهها غاضب

تأثر وفي نفس واحد) ..

أسطورة حريانا

.. أسطورة همس بها الأجداد للأبناء وغناها الأبناء للأحفاد
 .. ولكنها جديدة رائعة اللعان ، كأنما خلقت « هنا والآن »
 أو خرجت لتوها من يد الآلهة .. تبددت اصداؤها وضاعت بين
 قمم الألب البافارية . وهوت بها يد سحرية إلى بطون الوديان .
 وغيتها في ضمائر الأكواخ . وأدنتها من لهيب المواقد . ونفشتها حارة
 دافقة على شفاه الفاتنات الحسان ، وأذابتها دامعة على وجنات
 بريئة ..

أنها أسطورة الظلال والاصداء التي عبدها فيلسوف تائه شارد
 هائم ، اتسع رأسه لكل شيء .. وجمع العالم كله في نفسه ..
 فلا هو بلغ حد الشبع ، ولا هو استراح .

كان الفيلسوف الحائر لا يكاد يسمع بشيء جديد ، حتى يحزم
 متاعه ، وهو قليل ويشحذ ساقيه ويرحل .. تاركا ثروته الهائلة
 من ورق الكتب لا من ورق البنكنوت .. وتلك عادته دائما ،
 كأنما خلق حارسا لهذه الأرض ، عليه أن يرقب النازح الغريب .

والقاصي والداني . ومن مات ومن ولد . ومن يزفر الدماء
من تباريح العذاب . ومن تجلجل ضحكاته الافلاك . .

. . وفي يوم . علم أن ساحرة تسكن كهفا عند ذيل إحدى
الصخور التي تشرف على جدول دائم الإنسياب ، له قطرات
تسحر الحصباء على شاطئيه فتنام حتى تكفنها قطرات الندى
النقية . .

وسمع أن صوتها كأنه النهر المقدس تتطهر فيه النفوس . .
أذن لابد أن يراها أو يسمعها . .

* * *

وعند باب الكوخ وقف الفيلسوف يحمل رأسا كبيرا
وقلبا طافحا بالطبول تضرب الدم عنيقا إلى كل خلاياه . . وبيده
المقشعة طرق الباب . .

وأعاد الطرق . . وسمع صوتا . . وشيئا نحिला ناعما رقيقا .
ولكنه لم يتبين ماذا يقول هذا الصوت . .

وتركزت قواه كلها في أذنيه وبديه ، فعاود الطرق من جديد
. . لقد سمع الآن بوضوح . . قال لها :

— أنت مريانا ؟

الأم والبنت : أيوه عن نفسك !!

أنا : أنا بأتكلم عنه هو ..

الأم والبنت : عنه .. طيب قوم بقى من هنا !

(وقت من هناك .. وفجأة ظهر صديق على الباب .. وأشارت

إليه أن يجلس وانطلقت أبحث عن الباب الخارجى ..)

— أنا هي .

— ما أجمل صوتك .

— شكرا .

— هذا شيء لا أستحق عليه الشكر ، أننى أقول الحق . . ولم أعرف بعد أن الإنسان يشكر على قول الحق ! . . حتى الملائكة قد سرى إليها هذا الفساد . .

— . . .

— كأنك لا تتكلمين . . وأنتما ترتلين أو تغنين .

— هل أعجبك صوتى ؟

— أعجبني ! ، ماذا تقولين ؟ أننى لم أسمع مثل هذا الصوت قط . . من علمك أن تتحدثى هكذا ؟ أية نغمت هذه . . أية كلمات تختاريتها . .

— لم يعلمنى أحد . .

— صدقت . أن مثلك لا يتعلم . بل يولد هكذا . هذا الجمال منحه . . هبه . . يقدمها الآلهة لبعض مخلوقاتهم . . أن صوتك هذا يحرك مواجعى . . يهز نفسى يحيلها إلى آهات . . لا أكاد أسمع حتى يحيل إلى أننى أريد أن أقول شيئا . . أن أفعل شيئا . . أن أغنى . . أن أنظم شعرا . . أن أكتب . .

— أنك واهم . . أو شاعر .

— بل أنت واهمة . . أننى أتحدث عن أحساسى أنا : وأنا أعرفه
أكثر منك . . أن صوتك كالنأى الحزين . .

— أنت واهم أو شاعر . . وأغلب ظنى أنك شاعر . . من الذى
يبحث بك إلى كوخى ؟ أنه كلام الناس . . أنها شائعات الواهمين
من الشعراء أمثالك . .

— أنك قاسية . . بالغة القسوة .

— بل رفيقة بك . وإلا كيف تحدثت إليك . .

— أنك تتحدثين إلى كل الناس .

— وماذا فى ذلك ؟

— لا شئ طبعاً . وإنما أريد أن أقول أننى كغيرى من الناس . .
فلم أنفرد بلطف لم تمنحيه سوى . .

* * *

ويتمى الحوار بين الشاعر الفيلسوف وبين مريانا ، كل يوم
على هذه الصورة . . يقف بالباب ، وتحدث هى من الداخل
دون أن تفتح باب كوخها ، وكأنها ضمير يتحدث ، أو كأنها ملاك
يصلى . .

أنه يقف ببابها كما تقف النار أمام جبل من الجليد . . ولكن
الأسطورة تقول أن هذا الجبل أخذ يذوب ويذوب ، والنار تعلو
وتعلو . . وكأنه جبل من الكحول الجامد لا من الماء المتجمد . .
فاذا مريانا تنساب وتنساب وتدنو من الباب . . وقد حطمت
غطاءها الخرفي . . وإذا بها إنسان آخر . . حى نابض . .

إن الشاعر لم يعد يسمع صوتها فحسب ، بل أخذ يحسه أنفاسا
دافئة واهنة . . ولكنها ما تزال وراء بابها . .

وفى يوم جاء إليها الشاعر . وقد نفذ صبره . وقال صارخا :
أى ساحرتى ماريانا . . أريد أن أراك . . أريد أن أعرف المعبد
الرائع الذى ينبعث منه هذا التريل الفاتن . .

– لن ترانى . . فلا داعى لذلك .

– بل هنالك ألف داع . . أريد أن أرى بعد أن سمعت . . أريد
أن أرضى عيني بعد أن شوقتها أذنى . .

– لا أريد أن أصدمك . .

– لن أصدم أبدا . . أن كنت جميلة جمالا خارقا ، فقد
رأيت جميلات كثيرات فى يقظتى وفى نومي وفى وهمى . .
وإن كنت دميمة دمامة منفرة ، فقد وقعت عيني على كثيرات
قاتلات . .

– فكر في الأمر أيها الشاعر الواهم ..

– فكرت طويلا ..

– إذن لحظة واحدة ترانى فيها ..

– تكفينى لحظة .. بل أقل من لحظة ..

– وبعدها ؟

– أموت أو أعيش سيان ..

– أذن ..

ودنت من الباب وفتحته .. لحظة واحدة ثم اقفلته ..

* * *

ولكن الشاعر خر ميتا ، كقطعة من الجليد الذى كانت
تعيش فيه مريانا .. ولا أحد يعرف لماذا مات هذا الشاعر ..

هل كانت مريانا ساحرة ، فقتلته بحبالها ؟

هل كانت قبيحة دميعة بشعة ، فقتلته بدمامتها ؟

لقد مات الشاعر ، وسره معه ..

* * *

واليوم ، فى الجبال الباقارية يقوم المعجبون بتمثيل هذه الأسطورة

دائماً .. فتختبئ العروس وراء صحرة ، وينادىها زوجها قائلاً :
مريانا . مريانا ساحرتى .. فترد عليه : أى شاعرى الواهم ..
— أريد أن أراك ..
— سترافى .
وتظهر مريانا ليعانقها ، ولتهب الحياة ، والموت من إجلها ..

السعادة زيادة !!

أثنان تحت شمسية على البلاج . . . ووجودهما
تحت الشمسية لا علاقة له مطلقا بما سيدور بينهما
من كلام . . . فمن الممكن أن يدور بينهما هذا
الكلام تحت أى شئ . . . أو فوق أى شئ صيفا
أو شتاء . . . ولكن الغريب فيهما أنهما مغموران في
الرمال تماما كمرضى الروماتيزم . . . كأنهما
مثلان في إحدى المسرحيات اللامعقولة فلا يظهر
من كل منهما سوى رأسه . . . والدائرة التي
التي تحيط برأس السيدة قد اتسعت مما يدل على
أنها تحرك رأسها كثيرا . . . أما هو . . . فالرمال
حول رأسه لا تهتز . . . وحتى الجزء الظاهر من
رأسه لا يدل على أنه حي وإنما هو مطمور أو
مدفون أو دفن أو يريد أن يكون دفينا . . .
فوجهه في لون الرمال أصفر وفيه بقع بنية اللون
. . . وجهه قطعة من الرمل الجامدة . . . !!!

لا أحد يعرف أو لا يهتم أن يعرف لماذا أختار الأثنان هذا الوضع
 . . . على كل حال لا أحد يعنى بأحد إلى هذه الدرجة . . . فالتناس
 يلقون بأنفسهم في الماء ولا تظهر إلا رؤوسهم أو أرجلهم ... أنها
 مباراة هائلة في الدفن . . .

كل واحد يدفن نفسه في المكان وبالطريقة التي تعجبه . . في
 الماء . . في الرمال . . في الكوتشينة . . في الشرب . . في النوم . .
 في صحيفة . . في كتاب . . في تريكو . .

فالطريقة الوحيدة التي يستمتع بها الإنسان أكثر ، هي أن
 يدفن نفسه أعمق . فلكي نعيش يجب أن ندفن أنفسنا من حين
 إلى حين !

ولكن يبدو أن هذين الأثنين قررا أن يدفنا بصورة فيها
 حياة . . فقد اندفن كل واحد ، منهما واقفا كأنه يحمل
 نفسه على رجله إلى العالم الآخر . . أو كأنه انتقل إلى العالم الآخر
 جزءاً جزءاً . . أو كان الملكين يحاسبونه من تحت إلى فوق .

ولكن الذي يقترب من الأثنين يجد أنهما لا علاقة لهما بكل
 ما دار في رأسى . . فقد وضع كل واحد منهما قبعة فوق رأسه . .
 وكادت الرمال أن تدخل في أنفه . . وبين الحين والحين تمتد
 يد تمسك البرنيطة التي كاد الهواء يخطفها ويلقي بها بين أقدام الأطفال

وبذلك يتكشف رأس أصلع . . هو رأس الرجل طبعاً . . ورأس آخر منكوش هو رأس السيدة . . وفي وسط شعرها دبوس لالكي يمسك الشعر ، وإنما لكي تمتد أصابع السيدة وتهرش بها . . ولسبب ما تهرش رأسها وهي لا تستطيع أن تهرش بأظافرها الطويلة ، حتى لا تنكسر أظافرها أو حتى لا تجرح فروة الرأس . . وبلا مقدمات تلتفت السيدة إلى الرجل المدفون في الرمل وتنفس بصعوبة وتقول : تفكر أنك في استطاعتك أن تسعدني ؟

تفكر أنت ما الذي يمكن أن يقوله رجل غرقان في الطين . . حواليه وتحتة وفوقه . . أي سعادة تقصد هذه السيدة . . ولكن دهشة الرجل لا تقنع السيدة بالعدول عن السؤال ، ولا بالعدول عن انتظار الجواب ولا باليأس من الكلام فتقول بصوت مرتفع لتغطي على صوت بائع الأيس كريم وتحول بين الرجل وبين ابداء رغبته في كوب من الماء البارد أو في أن تأخذ بيده وتخرجه من الطين إلى الرمل ، ومن الظلمات إلى النور ومن هذا السجن ومن هذه المناقشة التي يبدو أنها تطول ، وأنها هي وحدها التي ستسأل وهي وحدها التي ستجيب . ومن الغريب أنها تصر دائماً على أن يظل متابعاً لاسئلتها وأحاديثها وليس من الضروري أن يفتح فمه . . وإنما يكفي أن يهز رأسه من حين إلى حين ، ليدل على أنه لم ينم بعد أن قالت وهي تتلوى في الرمل كأنها مسمار الووظ : أنا أريد أن أكون سعيدة . . وأنا أعتقد أن السعادة شيء بسيط جداً . . يكفي أن نجلس

معا . . أن نتكلم معا . . أن نقرأ معا . . أى حاجة . . أنها كنسمة
الهواء . . أن العواصف لا تسعد الناس : . وإنما القليل من الهواء
هو الذى ينعش الناس . . وحياتنا مثل الشمعة : القليل من الهواء
يوقدها ولكن الرياح تطفئها . . وحياتنا فى الدنيا هى شمعة .
الله ؟ !!! أنت نمت وإلا آيه ؟

ويرد عليها : أفرضى أنى نمت . . أليس النوم نعمة . . أليس
النوم راحة والسعادة راحة . . فأنا أذن أمر بلحظة سعادة . . هل
يضايقك أننى أختلس منك لحظة سعادة . .

هى : ولماذا لا تحط عليك السعادة إلا عندما أتكلم ؟

هو : لو كنت أعرف مواعيد السعادة لضبطتها على الوقت
الذى يناسبك . .

هى : أنت تنام عندما تريد . . وأنت لا تريد النوم إلا عندما
أتكلم وأسألك . .

هو : هل يضايقك أنى أنام ؟

هى : لو كنت نائما حقا . . لا تضايقت . ولكنك كنت
تتظاهر بالنوم وأنا عارفك !!!

هو : كيف تظاهرت بالنوم ؟ هناك طريقة للنوم غير أن
يغمض الإنسان عينيه ؟

هي : وإنما أنت كنت تتابع كلامي .. أنا لاحظت هذا ..
لاحظت أنك كنت تهز رأسك وأنت مغمض العينين .. فأنت
أذن لم تكن نائما .. وإنما تصطنع النوم ؟

هو : أنى أهرز رأسي بحكم العادة فأنت التي تتكلمين عادة
وأنا المفروض أن أسمع وأنا أتابع ما يعجبني وما لا يعجبني
وأنا لا أعرف بالضبط أن كنت نائما وأهرز رأسي أو أحلم
بأنك ما تزالين تتكلمين .. أم اني كنت يقظان أتابع كلامك
أو أنى في المرحلة التي بين اليقظة والنوم ..

هي : طيب ما آخر شيء قلته لك ؟

هو : آخر شيء هو حكاية الخرشوف المسلوق ..

هي : أنا جيت سيرة الخرشوف .. الخرشوف ده شيء يهملك
أنت .. أنت راجل تحلم بالخرشوف وتنام بالخرشوف لكن أنا
بأكلملك عن السعادة .. الموضوع اللي أنت دائما تقول أنه
يجيب لك السعادة .. حاجة تانية غير أكل العيائين .. أنت
راجل مريض ..

هو : طيب ما هي السعادة .

هي : مرض . مرضك أنت !

هو : طيب بذهمتك مش النوم أحسن من الكلام اللي أنت بتقوليه ده .. أنا دلوقت أكتشفت أنني فعلاً لما بأسمع كلامك بانام .. لأن عقلي لا يستطيع أن يسمع كلام زي ده .. لا بد أن عقلي يغطيني بلخاف من النوم حتى لا أصاب بالبرد ..

هي : عاوز تقول أنني باردة ..

هو : عاوز أردد كلامك بس ..

هي : وأيه الفرق ؟

هو : طبعا فيه فرق .. هناك وابور يعمل ثلج .. الوابور يدور بالنار وبالكهرباء .. ومن النار ده تصنع ألواح الثلج .. يعنى الوابور الوالع ده هو اللي يطلع منه ثلج .. فالوابور لا يدور بالثلج .. يعنى الوابور مش بارد .. ولكن كلامه بارد ..

هي : شاطر يا ابتاع الخرشوف ..

هو : أنت فاكهة أن الغيان بس هو اللي بيأكل الخرشوف .. الإنسان السعيد محتاج إلى خرشوف ليه ؟ لأن السعادة مرض .. مش فيه ناس عندهم « عمى ألوان » .. يعنى عينهم تشوف كل الدنيا بلون واحد .. هو اللون الأصفر .. أو الأزرق ..

السعادة كمان هي عمى ألوان : مرض . لأن الإنسان السعيد يشوف الدنيا بلون واحد .. بلون الورد .. وعنده عمى في أذنيه أيضا .. فهو لا يسمع إلا الضحك وإلا الكلام الحلو .. وعنده عمى في تفكيره لأنه يحب الجانب السهل من كل حاجة .. يعني مش معقول يكون فيه مرض أكبر ولا أضخم من مرض السعادة ؟ وإذا كان مريض المعدة أو المصاريين بياكل خرشوف ، شوف بقی مريض العقل والعين والأذن والأنف ، وبقية الأعضاء الأخرى ياكل فيه ؟ ..

هي : أسمع بقی ما تقعدش تلف بي ..

هو : أنا طایل أقعد .. ما أنا واقف على حيلي .. أنا نايم بالطول ياريت تشدني وتطلعيني من اللي أنا فيه .. وأنا أقعد وأسمع لك وأقول لك كلام كويس .. مدى أيدك وتطلعيني من الطين اللي فوق واللى تحتي طلعي من التابوت ..

هي : خليك كده أحسن .. أنا قادره عليك وأنت غرقان في الرمل لما أقدر عليك وأنت بره .. يا راجل قل لي ختمعل أیه .. لما نیجی في يوم ونتخايق مع بعض .. مش معقول طبعاً أنك حتضربني قلمين .. أنا باشوف أن الراجل اللي بيضرب ده راجل بدائي .. ده راجل عاجز عن اقناع زوجته بالكلام في حين أنني عندي استعداد أني أسمع كلامك .. أي كلام تقوله بشوفه

أحسن حاجة في الدنيا . . وبعد كده تيجي تضربني قلمين . .
 بعد كل اللي أنا عملته لك . . شوف أنا عملت أيه مع أي
 علشانك . . شوف أنا استحملتك أزاى . . شوف أنا تعذبت
 أزاى . . وبعدين تيجي تضربني قلمين . . وكان أيدك اللي فيها
 القلم . . مش يجوز أن القلم كان ييجي في عيني . . كانت مصيبة . .
 وياشماتة الناس . . يا شماتة أهلي كلهم . . وتبقى عين وصابت
 عيني . . مش تخلى لي حاجة . . لا . . لازم أبقى عيانه وكان
 عيني تضربها بالقلم . . علشان ما ييقاش حيلتي حاجة زى الناس
 أبدا . . وأنت ولا همك . . طبعا تقوم تاكل . . وبعدين تنام . .
 وتقوم كأن ما فيش حاجة في الدنيا حصلت وأفضل أضرب
 دماغى في الحيط وأنت ولا هنا . . طب وعلشان أيه العذاب ده
 كله . . ما بلاش . .

هو : بلاش . . .

هى : أنت عارف أنا هقول أيه . ؟

هو : عارف . .

هى : وبسهولة كده . . يعنى أنت مش قادر تستحملنى آمال
 أنا أستحملتك أزاى . . وكان بتقولها . . وهو أنا اللي ضربتك على
 أيدك . . مش أنت اللي عايز نتجوز وبعدين دلوقت تقول
 ما بلاش . . طبعا دلوقت تقول بلاش . . بعد أيه ؟ . .

هو : أقدر أنام شوية . .

هي : هو ده الكلام اللي يسعدك . .

هو : يسعدك أنت . واللى يسعدك يسعدنى . .

هي : ياه . . ومن أمى كده ؟

هو : طول عمرى . .

هي : عينك فارغة . .

هو : ليه يعنى ؟ . .

هي : علشان أنت بتقولها وعينك من البنت القصيرة أم شعر
أكرت اللي رجليها فيها بقع اللي ماشية مع صاحبها. العجوز
الأخنف ده . .

هو : فين هي دى . . فين كل الناس اللي بتقولى عليهم دول . .
وأنا قادر أشوف حاجة . . أنا فى الفرن . . فى النار . . النار .
بتلسعنى . . هو معقول واحد بيتقى فى النار ويفكر . . عرفت يعنى
أيه جهنم . . جهنم معناها أن الواحد بيتقى عنده عقل ومش
عارف يفكر . .

هي : هوه الجواز يعنى جهنم . .

هو : هوه أنا جيت سيرة الجواز . .

هي : مش بتقول جهنم ؟ ..

هو : وهيه جهنم معناها الجواز عندك ؟

هي : أنت دائما بتقول كده ..

هو : أنا بأقول أن الجنة مفيش فيها جواز .. آدم ما تجوزش
حواء إلا لما نزل الأرض .. وجهنم كمان مفيش فيها جواز ..

هي : لا أنت ما بتقولش كده .. أنت بتقول أن جهنم مش
ممکن يكون فيها جواز .. لأن الجواز هو جهنم .. والجواز
في جهنم معناه : جهنم في داخل جهنم .. وربنا ما يرضاش
بالظلم ده ..

هو : أنا أمتي قلت الكلام ده ؟

هي : زمان ..

هو : وأفرضي أنني أنا قلت ده زمان وبعدين غيرت رأيي ..
مش الواحد بيغير رأيه حسب الظروف ..

هي : لا أنت حقتول لي .. أنت كل يوم لك رأي .. يوم
أقول لك بتحبني تقول : أيوه .. يوم تقول : يارتنى ماحييتك ..
ويوم تقول لي : أن الحب والكراهية الاثنين زي بعض .. وزى
ما فيه ناس بتموت نفسها بسبب الحب ، فيه ناس بتموت
غيرها بسبب الحب .. والنتيجة واحدة .. ومرة تقول لي :

أنا قرفت من الحب . . . وتقول . أن الحب د ه عاوز واحد
فاضى . . . والمشغول ما يقدرش يحب . . . واللى يحب ما يقدرش
ينشغل بحاجة تانية . . . مش ده كلامك بعصمة لسانك . . .

هو : فكرتيني . . . والنبي عصى وجعنى من الرمل . أنت
يا أخ ياللى هناك . . . أنت يا بتاع التين ! . تعالى خذ أيدى . . .
أيوه لازم واحد تانى ياخذ أيدى . . .

هى : هنرجع للنغمة القديمة . . . واحد تانى ياخذ أيدك . . .
واحد غيرى . . . أنا ما أقدرش أعمل لك حاجة أبدا . . . أنا عارفه . . .
وده اللى بيخلينى دائما أسألك . . . تفكر أنا أقدر أسعدك ؟ . . .

هو : ممكن . . .

هى : ممكن أزاى . . . إذا كنت أنت مش عاوز تبقى سعيد . . .
أنت معذب نفسك . . .

هو : أيوه أنا معذب نفسى . . .

هى : معذب نفسك أزاى ؟

هو : معذب نفسى زى أنت ما بتقولى . . .

هى : يعنى أيه ؟

هو : يعنى زى أنت ما بتقولى . . . وإلا أنت بتقولى كلام
مش فاهماه . . .

هي : عاوزه أعرف .. يجوز أنا فاهمه حاجة .. وأنت فاهم
حاجة تانية ..

هو : نفس الحاجة اللي أنت فاهماها ..

هي : كده يبقى بلاش أحسن ..

هو : بلاش ..

هي : أنت خاسر عليك أيه .. المصيبة فوق دماغى أنا ..
أنت تطلع زى الشعرة من العجين .. لكن أنا اللي ضحيت ..
أنا اللي أتعذبت .. وأنت حاخلك على أيه يا حسرة .. صاحبتي
بتقول عليك .. ولا بلاش .. تقول اللي تقوله هيه ولا غيرها ..
وغیرها .. أهى قسمتى والسلام ..

هو : وليه قسمتك .. ما بلاش القسمة دى ..

هي : أعمل أيه قسمتى ..

هو : مش قسمتك للدرجة دى ..

هي : قصدك أيه يعنى ؟ ..

هو : قصدى أنها قسمتى أنا كان ..

هي : ما لها قسمتك بقى .. مش عاجبك بلاش ..

هو : شوفي أنت كم مرة قلت بلاش يمكن عشر مرات . .
تفتكرى إذا كانت دى رغبتك موش أحسن لى . . وأحسن لك .

هى : عاوز تقول أيه ؟

هو : عاوز أقول اللى أنت عاوزه تقوليه . .

هى : بلاش ..

هو : وهو كذلك . . بلاش بس شدى أيدى وطلعيني من
الرمل ده . .

هى : واطلعتك ليه أنا . . واحدة تانية بقى . .

هو : خلاص . . قوام كده . .

هى : إذا كان فى الهباب اللى أنت فيه وبتقول كده . .
أمال لما تطلع بره وتنزل تعوم شوية . . وترجع تاخذ دش وتشم
شوية هوا حتقول أيه . .

هو : هو أنت بتكلميني كل الكلام ده علشان أنا محبوس . .
عاشان أنا غرقان . . أنت خايفة تكلميني وأنا قاعد فوق
الرمل .. والله شاطرة .. ناصحة أنت .. لكن مش ده اللى ينفع ..

هى : أسمع . . أنت واخذ الحكاية جد ليه . . أحنا مش
أتفقنا أننا لما نلاق نفسنا نتكلم بالشكل اللى يقرف ده نغير

موضوع الكلام .. مش كده مش ده أهم بند فى الاتفاق
اللى بينا .

هو : أيوه صحيح ..

هى : طيب أنت عاوز تكمل الكلام باللهجة دى ؟

هو : لا ...

هى : طيب يا أخى هات أيديك .. ويا لللا تغير الموضوع
الأسود ده .. مش المفروض أننا لازم نعيش ومادام لازم
نعيش أيه المانع أن أحنا نعيش سعداء ..

هو : سعداء أزاي ؟

هى : كده ...

هو : كده أزاي ..

هى : تغير .. تغير موضوع الكلام .. تغير المكان ده .
تغير الناس .. يا نتحرك أحنا .. يا نخلى اللى حوالينا يتحركوا ..
هيه حياة ولا أكثر .. حياة واحدة لازم نعيشها كويس .. على
قد ما نقدر .. أنا شايفة أن الناس عاملين زى الستات مربوطين
قوى .. الست رابطة شعرها رابطة رجلها ورابطة ذراعها كلها
مربوطة علشان كده تلاقى أى واحدة ست عصبية .. وأول حاجة
لما تبقى لو حدها .. أنها ترمى كل الأربطة دى وتشعر بسعادة

مالهاش أول ولا آخر .. وإنما أحنا رابطين نفسينا كده ليه
يا شيخ فكها .. يا شيخ حلها .. وهيه تنفك وهيه تنحل ..
وتبقى عال .. أدبك أنت ضحكت .. أيه ضحكك ما تسألش
نفسك .. أضحكك من غير سبب .. عرفت بقى الجواب ..

هو : على أيه ..

هى : على سؤال ..

هو : أى سؤال ..

هى : سؤالى الأولانى .. مش أنا سألتك إذا كنت تقدر
تسعدنى .. والجواب أنك طبعا تقدر .. السعادة زى النوم
إرادة .. فالذى يدخل فراشه .. وهو يريد النوم ، سينام
قطعا .. والذى يدخل سريره وهو راغب فى النوم لن ينام
وكذلك السعادة إذا أردتها فانها تغطيك كاللحاف .. وإذا لم
تردها ، فانها تهرب منك كالنوم .. وأحنا أردنا السعادة فغيرنا
موضوع الكلام .. وضحكت أنت .. وضحكت أنا .. أهى دى
السعادة .. مفيش أبسط من كده .. الله .. أنت نمت ..

هو : ...

هى : دلوقت مش حا أزعل منك لو كنت نائم .. أو لو
كنت بتتظاهر بالنوم .. يكفى أنك ضحكت ..

وبسرعة مفاجئة . . راح يرم نفسه في الرمل . . ثم أمتدت له يد بائع الآيس كريم وجذبه من الرمال . . وأجلسه تحت الشمسية . . ثم نهض واقفا وألقى بنفسه في البحر . . وراح يسبح . . ثم يعود إلى الشاطئ . . وبسرعة خرج . . وعاد إلى البحر . . كأنه كان مدفونا في الرمال عشرين عاما من عمره . . فلما خرج من الرمال خرج أصغر سنا . . وأكثر حيوية . . مع أن معجزة لم تقع . . وكل ما حدث هو تغير بسيط جدا في الكلام . . تماما كما تضع قطعة حديد على شريط قطار فيقع كل القطار وكل ما فيه من رجال ونساء وأطفال . . قطعة حديد صغيرة تضعها على شريط القطار فيقع ، ونفس قطعة الحديد لو مددت يدك وازحيتها من طريق القطار فانك تنقل المئات من الناس . . فيبقى النائم غارقا في نومه . . ويبقى الرضيع على صدر أمه . .

مع أن معجزة لم تقع وإنما تغير بسيط حدث . . فكل التغيرات البسيطة هي التي تؤدي إلى التغيرات الكبيرة في القطار وفي حياة الناس . . بنفس السهولة التي تضيئ بها غرفتك في الليل ، بمجرد أن تضغط على مفتاح النور . . وبهذه السهولة يمكن تحويل حياة الناس الكثيرة إلى مرحة والوجوه المحمّدة إلى وجوه لامعة . . بشرط أن تريد ذلك . . فالسعادة إرادة ، والشقاء إرادة . .

ومن الممكن أن يجلس الاثنان من جديد فوق الرمال وتحت
الشمسية أيضا . . ومن الممكن أن يدور نفس الكلام . . ولكن
عيب الجلوس فوق الرمال هو أنه يعطى للأثنين حرية تحريك
الأيدي . . وحرية الابتعاد والإقتراب . . وفرصة إثارة إستطلاع
الناس فيقتربون منهما ، وهم يتظاهرون بأنهم يفتشون عن كرة
ضاعت من طفل صغير . . وربما أدى إستطلاع الناس إلى أن
تسكت السيدة . وهناك يفرح الرجل ويشمت فيها . . وربما كان
من الأنسب أن يستدرج الأطفال إلى الجلوس معه . . وظهور
الأطفال تحت الشمسية يجعل قلب السيدة يلين . . وعندما يلين
قلب السيدة فأنها تتحول بسهولة إلى أم لهؤلاء الأطفال ولكل
أطفال الدنيا . . وتحس أنها أيضا أم لهذا الرجل . . أو تريد أن
تكون أما له أقصد أما لأولاده . .

ولكن الأمومة كالسعادة إرادة أيضا .

إرادة رجل وامرأة وهى إرادة تسعد الاثنين . . .

وسواء جلس الاثنان تحت الرمل أو فوق الرمل ، وقالوا نفس
الكلام أو أى كلام آخر غيره . . فالنتيجة من الممكن أن تكون
واحدة . وهى أنه لا سعادة بلا تغيير إرادة ولا إرادة بغير
الاثنين معا وفي وقت واحد !!!

عندما تحب امرأة لا تطلق

أحترمت الشاب الذي ذهب إلى المحكمة وأعلن للقاضي في مدينة بالرمو بصقلية أنه يريد أن يترك زوجته وأنه لا يستطيع أن يعيش معها .. ولما سأله القاضي : هل أنت لا تحبها ..

أجاب : بل أحبها والناس كلهم يعرفون ..

سأله القاضي : أليست هي تحبك ..

فأجاب : أنها تحبني ..

وسأله القاضي : أذن ؟

قال الشاب : هذه هي المشكلة .. أنا أحبها وأحس أنها شيء كبير في حياتي بل أنها حياتي .. وهي تحبني ولكنها لا تحس أنني شيء كبير أنها لا تحس بالمجهود الهائل الذي أبذله من أجلها .. أنني كوابور كبير جدا للكهرباء أظل طول الليل والنهار أدور وأدوخ واحترق لكي أشعل لها مصباحا صغيرا .. ويستمتع بضوء المصباح كلها أو قطتها أو أي أحد أو أي شيء .. أنها لا تشعر بقيمتي

ولا يحىي . . أنى أحبها ولكن لا أستطيع أن أعيش مع إنسان
يحتقرنى إلى هذه الدرجة .

وقال القاضى : أنها لا تحتقرك ولكنها تحبك على طريقها وهى
حسنة النية فى كل ما تفعل . . أنها تنتظرك وتبكي إذا مرضت
وعندما مرضت فى العام الماضى من الذى ظل نائما عند قدميك
لا يأكل ولا يشرب بل ولا ينام أنها هى التى كانت تتحايل على
زيارتك وهى التى كانت تعمل وتدخر لك الأموال . . وكل هذا
ليس حبا . . بل أنها تعذب نفسها من أجلك .

وقال الشاب : أنا أعرف أنها تحبى ولكن حبا صامت جامدا . .
لقد تمنيت فى وقت من الأوقات وما أزال أتمنى أن تكرهنى . أن
تركنى . . أن تتشاجر معى أريد أن أشعر أنها تقاومنى وأقاومها أن
يكون بيننا شئ . . أبدا أنها تنتظرنى حتى أعود . . ولكن كما
تنتظرنى المقاعد والأطباق والأبواب تماما . وأعرف أنها تبكى عندما
أمرض ولكنها تبكى كما كانت أى تفعل عند قبر أخى فانا قبر ،
وهى أى التى تبكى . بل أريدها أن تضحك أن تكون سعيدة وأنا
مريض أن هذا يجعلنى أوثر بأن مرضى ليس إلا شيئا عابرا وأننى
سأعيش وسأتغلب على مرضى . . كما تغلبت هى على دموعها . .
وكما تغلبنا نحن الاثنين على الناس لكى نعيش معا . . أنها تحبى على
طريقها . . ولكن يا سيادة القاضى ما هى طريقها ؟ أنها القضاء

على حياتي أن كلامي لا معنى له ، - فهي لا تسمعي وإذا سمعتني لم تفهمني ، وإذا فهمتني فأنا تفضل السكوت . . أن حياتي بالنسبة لها لا تساوي إلا بضعة ملاليم . . مع أن حياتي تساوي أكثر من هذا بكثير . . أنني لست غنيا ولكن المال الذي عندي قد كسبته بتعب وأرهاق لا يعرفه الأغنياء فالمال الذي أكسبه ليس بالقليل ، بل هو كثير من المجهود والتعب والعذاب واللذة ولهذا أريد أن أترك هذه الفتاة التي أحببتها لأنها صاحبة عاهات مستديمة .

وقال القاضي : أنك هربت من المشكلة . . لماذا لا تأخذ بيدها . . لماذا لا تنبه حواسها النائمة ؟ لماذا لا تصبر عليها . . ألا ترى أنك قسوت عليها جدا . . أنك عذبتها بلا ذنب . . ما جرمها ؟ . . أنها تحبك وتخاف عليك وترى الدنيا كلها في الجلوس إليك . . أنا أعرف أنها لا تقول لك ذلك . . ولكن ألا ترى في عينها شيئا ؟ ألا ترى أن عينها كالكتاب الذي تقرأه والكتاب لا يتكلم . . لماذا تريد من زوجتك أن تكون أسطوانة صاحبة راقصة ضاحكة وبذلك تحبها . أن الإنسانية لم تعرف الأسطوانات إلا أخيرا وقبل ذلك . . عرفت الكتاب . . وعرفت قبل الكتاب مناظر الطبيعة . . عرفت القمر والأنهار والأشجار . . وهي جميعا صامتة لا تنطق . . وإنما الذي ينطق ويتخيل هو الإنسان . . أو هم الشعراء وزوجتك تقول أنك رجل شاعر وأنت تنظم الشعر وزوجتك تحفظ الكثير من المقطوعات التي ألقتها في جملها وسعادتك إلى جوارها ، وعذابك

بعيدا عنها . . فلماذا تترك الشعر والفن وتريد من زوجتك أن تكون
فرقة موسيقية وتقوم بدور القائد فقط . . وكل ما عمله أنك
تمسك العصا وتظل تتلوى يمينا وشمالا . . أنك تريد أن تكف
عن الكلام أما الذى يتكلم فهو زوجتك . . أنت تريد أن تتحول
إلى الصمت . كزوجتك الآن تماما وما رأيك إذا هى شكت من
صمتك ، وإذا هى شكت من أنها لا تساوى عندك شيئا . ما رأيك
إذا جاءت زوجتك إلى المحكمة وطلبت أن تتركك لأنك تمثال جامد
لا ينطق ولا يدرى بها ؟

وقال الشاب : سيدى القاضى . . هناك أشياء بين الرجل وزوجته
لا يعرفها القضاة ، وهناك تصرفات لا يذكرها الرجل ولا تذكرها
المرأة أبدا ولكن عندما يضطر الواحد منهما إلى ذكرها فأنها تأخذ
صورة المبادئ العامة والقضايا الكبرى . . فأن الرجل الكريم
لا يستطيع أن يقول للقاضى أو لآى إنسان آخر أن رائحة عرق
زوجته كريهة مثلا وأن أسنانها متسحة ولكنه بدلا من ذلك يقول
أن زوجته لا تقيم وزنا لزوجها ولا تقيم لمشاغره قيمة . . أنها
لا تفكر إلا فى نفسها . . أما زوجها فأنها لا تفكر فيه . . ومعنى
ذلك أنه كان يجب أن تغسل أسنانها وأن تضع بعض المساحيق
على جسمها . . هذا ما يقوله الرجل الكريم . . وأشياء أخرى . .
كثيرة لا يفهمها إلا الرجل وزوجته . . وأنا أقسم لك أنى أحب

زوجتي ولكنى لا أستطيع أن أعيش معها فأنا أخاف أن أصبح كالنافورة الجافة التى لا تستوى إلا الحشرات . . أن كل ما فى نفسى حشرات . . والسبب هو أن زوجتى لا ترائى شيئاً هاماً فى حياتها . أنها ترائى إنساناً تافهاً . . أنها لا تقصد ذلك وكل شئ فى تصرفاتها يجعلنى أتحول إلى كوخ حقير مظلم رطب قديم مهجور . . وأنا أريد أن أهرب قبل أن يتحول الكوخ إلى كهف تسكنه الأشباح .

وقد فكرت فى كل ما قلت طويلاً . . وأنا لست نادماً والله على ما أقول شهيد .

* * *

وحكم القاضى بأنفصال الرجل عن زوجته ولم يكده يصدر القاضى هذا الحكم حتى بكى الزوج وإنهار . . أما الزوجة فعادت إلى بيتها وكأنها قد عادت من السوق ومعها بعض الضرورات وأتجهت إلى المطبخ وألقت بقطعة من الخبز لكلها الصغير وأشعلت الموقد وغسلت الملاعق وطهت طعامها وجلست تأكل دون أن تنتظر زوجها . . فى ذلك اليوم والأيام التى جاءت بعد ذلك . . ولم يحضر الزوج ولكن الزوجة تأكل وتنام كما لو كان هناك !!

البحت عن بداية

لا بد أن تكون لحكاية حياتها الغربية بداية . .

ويمكن أن ابدأ حكاية حياتها بأن أقول : كانت في الرابعة عشرة من عمرها عندما هبطت إلى باريس . . أو هبطت بها باريس ، ومن سنتين عادت إلى القاهرة . . ولكن كانت حياتها قد انتهت . .

ويمكن أن ابدأ حكاية حياتها على الشكل الآتي فأقول : كانت وحدها في باريس . . فتاة شرقية جميلة . وجهها كوجه طفل . . بشرتها وردية متفخة وعيناها صافيتان ، وشفتاها صغيرتان مضبوطتان في حالة استعداد دائم . . وشعرها ينهدل على جبينها ليلدو أكثر سواداً ، أو ليلدو وجهها أكثر بياضاً . . ورأت بنات باريس . . وكلهن في سنها . . فما الذي تفعله ؟

ويمكن أن تكون هذه هي بداية حياتها ، أو حكاية حياتها ، أو حكايتها مع الحياة : كانت أمها فرنسية . . وقد أحببت رجلاً من مصر . . وعاشت معه في باريس سعيدة به ، بشعره الأسود وعينه السوداوين وخشونته في عاداته ، وخشونة أخرى في صوته . . وكانت تطلب إليه أن يعاملها كما لو كانت فتاة في قصة ألف

ليلة وليلة ، أو قصص حاجى بابا . . ويطلب إليها أن يجلس فوق
 مقعد عال ، وأن تجلس هي عند قدميه . . تنظر إلى أصابعه
 المضغوطة الدليلة . . من طول الحبس . . وكانت هي الأخرى
 تشبه أصابعه . تريد أن تكون محبوسة فيه . . في بيته ، في عاداته ،
 في طباعه ، وراء صوته الغليظ ، ووراء جسمه الضخم ، وراء
 الباب المتداعي ، في بيته الرينى . . ولكنها ضاقت بهذه الحياة . .
 أفاقت السيدة الفرنسية من هذا الحلم . . وأكتشفت أنها لم تعد
 مراهقة . . أنها كبرت . وأن زوجها لم يعد قادرا حتى على أن
 أن يكون شرقيا . . أنه غليظ بلا فن ، أنه نحشن بلا معنى . .
 ووجدت الأم أن أبنيتها صورة منها . . طويلة ممتلئة ، متفجرة . .
 قنبلة صاروخ ينتظر الإشارة لكي ينطلق بالنار والدخان إلى هدف . .

ولكن صاروخ من نوع آخر . . لا يتحرك . . وإنما تنطلق نحوه
 الأهداف . . عيناها . . صدرها . . بشرتها . . شعرها . . أمها . .
 أقصد ملامح أمها . . وقررت الأم أن تبعث بأبنيتها إلى أوروبا . .
 إلى باريس بالذات . . عند أقاربها هناك . . وسافرت الأبنة . .
 وأختلف الأب المصرى وزوجته الفرنسية . . وخطابات الاثنين
 إلى أبنيتهما في باريس ، تروى قصة غريبة فكل من الأب والأم
 يتهم الآخر . . وأحتارت الأبنة في باريس . . ولا تدري ماذا

تفعل . . ولا من الذى تهمة . . ومرضت الأبنة . . ولزمت الفراش
وتعودت أن تلزم الفراش ، بعد كل مجموعة من الخطابات . .

* * *

ويجوز أن تبدأ قصة حياتها باليوم الذى ألتقت فيه بأحد أساتذتها
فى باريس . . كانت قد لزمت الفراش . . أو لازمها الفراش . .
وكانت السماء تمطر . . ولأول مرة تشعر بالرعب . . أنها فتاة
صغيرة . . ولم يكده الأستاذ يدخل غرفتها حتى أنطفأ النور فى كل
المنطقة . . وعلى ضوء الشموع رأت وجهه الأبيض . . ولحيته
السوداء . . واللمعان الغريب الذى رآته كثيرا بعد ذلك . . وأحبه
. . ثم كرهت أن ترى هذا اللمعان فى عيون كل الناس . . حتى
لو كان هؤلاء الناس صورا فى المحلات . . وعلى ضوء الشموع
سمعت يتغنى . . وسمعت يلقى شعرا جميلا تتردد فيه كلمات الحنان
. . والحب . . وشبابك وجهالك . . ورأت فى عينيه الصديق . .
وعانقت الصديق واستسلمت له . . وكانت فى الرابعة عشرة
من عمرها . . وفى باريس . . ووحدها . . وأبواها فى مصر على
تخلاف دائم . . وكانت تحب أمها ، وتشفق على أبيها . . ولم
تفهم معنى كلمة : نحدى بالك من نفسك يا بنتى ، ولم تفهم هذه
الجملة ، التى كان يقولها أبوها فى ميناء الأسكندرية وهو يودعها . .
وعندما عادت إلى مصر وتزوجت بعد ذلك بست سنوات . .

ورأت زوجها يقرب منها . . ورأت اللعان الغريب في عينيه . .
أحست بمعنى عبارة والدها . . وأحست أن زوجها سيعتدي عليها
. . وهربت منه !

* * *

وربما بدأت قصة حياتها علي هذا النحو : كانت في الصيف
على شاطئ الريفييرا . . مايوه أزرق وبشرة بيضاء وردية . . وهزة
خفيفة في صدرها والتواءة غير مقصودة في خصرها . . ورأسها
ينحني إلى الوراء ، مشددوا — بشعرها الأسود ، المشدود بدبوس
به وردة . . وحاجبان مرفوعان . . مشدودان إلى أعلى . . وكتفها
عاليتان ، مشدودتان إلى الوراء إلى أعلى . . أو إلى أعلى في تواضع
. . قوامها غريب . . وخطوطها غريبة . . وكلها مرفوعة .
في سياق نحو الرأس . . وكلمة تسمعها من شاب أسمر . . فعلا
كان لونه أسمر . . أو لم يكن الصيف قد بدأ بعد . . وتقدم إليها
ومد يده . . وعيناه في عينها ، في كتفها ، في شفتها ، في قلبها ،
ومحبها من يدها : وأجلسها إلى جواره تحت الشمسية وأستسلمت . .
كأنه موجة عاتية ، وكأنها زورق أنقطع المحيط الذي يربطه
بالشاطئ . . وسألها الشاب : لماذا لم تسأليني من أنا ؟ لماذا لم تقاومي
رغبتي في أن أدعوك إلى الجلوس معي على الرمل ، تحت الشمسية ،
وأمام كل الناس . . وقبل أن تفتح فمها . . قال لها : ليس من

الضرورى أن تقول شيئا ، يكفى أن أنظر إلى شفيتك . . فيها أجمل ما فيك . . ولم تنس هذه الكلمة . . ومنذ ذلك الوقت وهى تمد شفيتها إلى الأمام . . إلى كل شيء . . إلى الكأس والسيجارة ، وشفاه الناس . . وكما جلست تحت الشمسية نهضت ، ووراءها الشاب الأسير ، الذى قال لها لأول مرة فى حياتها : إذا لم تكونى زوجتى اليوم فسأنتحر . . ورفضت . . وأنتحر . . وعادت تلزم فراشها ، وتضع الشموع حول جسمها الأبيض المملود تحت أغطية ثقيلة . . كأنها تابوت يحرس نفسه . . وكرهت الشموع . . وكرهت كل شيء أبيض . . الملابس . . والوجوه وضوء الشمس والماء واللبن والفرش الأبيض . . وكتبت لأمها تقول لها : لقد أوتكبت جريمة قتل . . لقد طلبت من شاب أن ينتحر من أجلى ، فلانتحر . . هل أنا مجرمة ؟ ولم تصدق الأم أفكار أبنيتها الصغيرة . . وتمنت لها السعادة . . وعندما وقع هذا الخطاب فى يد الأب ، أو على يده أو أصاب يده . . لعن الأم التى قتلت أبنيتها . . وكتب لها يقول : عودى إلى مصر . . أنا فى أنتظارك .

ولكن الأبنه لم تعد فقد كانت غارقة فى حبها الكبير . .

* * *

ولما سألتها عن بداية قصة حياتها أختارت هى هذه البداية :
بداية حياتى بداية غير طبيعية . . رأتى أحد الشبان فى نادى الجزيرة

.. شاب جميل .. فيه رجولة .. ولا أعرف لماذا تحباني ..
مع أنني لم أكلمه .. ولم أكن أعرفه ..

ولكنني رأيت يتقدم مني ويشتمني ويقول عني أنني مغرورة ..
وأنني فاكرة نفسي أجمل فتاة في العالم . ولم أفهم لماذا هذا الهجوم
.. ولكنني تعلمت مثل هذه المواقف في باريس . أربع سنوات
في باريس . وأنا صغيرة . حلوة . مرهقة . ووحدي . وأبي وأمي
على خلاف بينهما . وليس عندهما وقت لي . ولذلك كنت أفكر
وأختار لنفسي كل ما يتفق مع سني وشبابي وأحاسيسي بأنني
شرقية . وأنني يجب ألا أبدو أقل شجاعة أو حضارة عن بنات
فرنسا .. فلما رأيت هذا الهجوم من هذا الشاب قلت في نفسي أن
هذا الشاب هو بالضبط الصنف الذي أريده من الرجال . أنه
المغرور المتعالي .. الذي يعتقد أنه أقوى إنسان في العالم .. وهذا
النوع هو الذي يجعلني أشعر بقوتي وسعادتي عندما أحطمه ..
ولا أعرف لماذا قررت أن أهدم هذا الرجل .. وتمنيت في لحظة
شريرة أن أهدم مستقبله .. وأن أراه يتسول وأن أبكي بعد ذلك
على قبره عندما يخرجون جثته من تحت قطار الصعيد .. ولماذا
قطار الصعيد ، لم أفهم ؟ ولا أعرف حتى الآن ما الفرق بين قطار
الصعيد ، وقطار وجه بحري ..

لقد تحباني وتحبته أيضا .. وأقسمت بيني وبين نفسي أن

أكون زوجة لهذا الرجل بعد أسبوعين . . ولم يمض أسبوعان حتى
كنت زوجة لرجل لا أحبه . . رجل يختلف تماما عن الرجل
الذي أحبته في باريس . . وتعلمت من هذا الزواج أن هناك شيئا
أقسى من القتل . . أقسى من النار ، أقسى من الموت . . شيئا
أسمه : الاحتقار . . الغثيان ، أن ترى إنسانا وتعرف منه . . من
شكله . . من رائحة عرقه . بل من تصورك بأنه يعرق وأن هذا العرق
على شكل قطرات . .

هذه القطرات كنت أراها دما مل شفاقة تظهر على الجلد . .
كرهت هذا الرجل من كل قلبي . . لا أقصد من كل قلبي . .
قلبي لم يدخل في هذا الزواج ولا في هذه العلاقة . أقصد
أنني كرهته من كل جسمي . ولا حتى جسمي له صلة في هذا
الزواج . . لم أكن أشعر بجسمي . لم أشعر أن لي جسما . وإنما كرهته
من كل . . لا أعرف من كل ماذا . . إنما كرهته من كل حياتي
. . من كل فكري . . كرهته . ولم أعرف السبب . وعرفت
أن الزواج الذي ليس فيه حب ، هو أن يتخصص أثنان في كراهية
كل منهما للآخر . . ولكنه لم يكن يكرهني . . وإنما كرهته . .
وكرهت كل الرجال . . الذين في عيونهم نظرات غريبة . . وفي
عيني زوجي نظرات غريبة . نظرات فاجرة لقد أنزعجت أنه
يريد أن ينتصيني أنه تصور في لحظة من اللحظات أن هذا العقد

الذى وقعه معناه أنه يرغبنى على أن أحبه .. على أن أعطيه
 ما يستحقه ولكن أحداً لا يستحق شيئاً .. لا أحد يستحق نظرتى
 ولا دمتى أحد .. كلهم أصحاب نظرات غريبة .. أحقرها ..
 نظرات أقابلها بمغص فى معدتى .. وشئ مر أقذفه من فى وأدوسه
 بقدمى .. وكان لابد أن أهرب .. وهربت .. وهربت ..

* * *

ولما أحسست أننى أقربت منها .. من نفسها .. من أعماقها المظلمة
 الباردة المرتجفة ، سألتها : ولماذا تفضحين نفسك هكذا أمام النساء
 والرجال .. أننى أرى ملايسك ممزقة وآراك لا تكفين عن الحمر
 .. بجنون تشربين .. وبنجون تدخينين بجنونة بجنون .. لماذا تعاكسين
 الرجال أمام النساء .. والنساء أمام الرجال .. لماذا تكشفين كل
 نفسك وكل جسمك .. لماذا يسعدك أن يسخر الناس منك .. أننى
 أراك لا تكفين عن الكلام ، تكرهين الصمت تكرهين السجارة
 الحامدة ، والكأس الفارغة .. والأزياء المحتشمة .. أننى أراك
 تنجلين من خجلك .. من طبيعتك أن جسمك وحش ، ووجهك
 ملاك .. أن وجهك صغير مثل عقلك ، وجسمك كبير مثل قلبك
 .. وأنت فى ثورة على شئ .. على أحد .. على نفسك .. على
 كرامتك .. على أحساسك .. أريد أن أفهمك .. تكلمى ..
 قولى أى شئ وأنا أفهم بعد ذلك .

وربما كانت هذه هي البداية الحقيقية لقصة حياتها ..

.. لقد ضمت ساقها الممدودتين .. ومسحت وجهها ..
ومن عينيها الصافيتين لمحت شيئا من الحزن والندم .. ومن هذا
الوجه الصغير أطل طفل برئ يتلمس ثوب أمه .. حضنها .. أى
حضن .. أى حنان .. قالت : أننى أريد أن أهرب من نفسى ..
لا أريد أن أفكر فى شئ .. أن الذى أفكر فيه سيجعلنى أبكى ..
وأبكى بصورة مجنونة .. أننى أتكلم طول الوقت وبصوت مرتفع
حتى لا أسمع نفسى .. حتى لا أحس بنفسى .. أننى أشرب .. أدخن ..
أرقص أحطم نفسى .. أحطم الجسم الذى لم تعد له قيمة .. لم يعد
لهذا الجسم لون ولا طعم ولا رائحة .. ليس ناعما .. ليس شابا ..
ليس معطرا .. أنه بخار .. ضباب .. سحاب .. هباء .. أنه لم يعد
يهمنى .. لم أعد أحس به .. لم أعد أحترمه .. أنى أحترمه
أنى أسخر منه .. لم يعد مصدرا لسعادة أحد .. لم يعد حصنا
لأحد .. أن اليد التى كانت تلمسه قد انقطعت مانت .. أن أستاذى
الذى أحببته بكل طفولتى .. لم يعد له وجود .. وأنا لم يعد لى
وجود .. أننى أسخر من كل النساء .. أننى أتعري أمام كل الرجال
حتى تمنجل كل امرأة من نفسها .. تماما كما أنجل من نفسى ..
أننى أتعذب مره أخرى من إحتقارى لنفسى .. لجسمى .. أتعذب
لأننى أبدو هكذا مضحكة .. شاذة أمام كل الناس ..

وفي نفس الوقت أجد لذة لأنني أعاقب جسمي . . أعاقب نفسي
 كأنني الذي اخترت الزواج من رجل لا أحبه . . اخترت أن أعطيه
 ما لا أريده . أكره عذابي . وأحب إحتقاري لنفسي . . لقد
 أدخرت كل شيء للرجل الذي أحبه . وراح الرجل وضاع كل
 ما كان عندي . ولم يبق لزوجي أو لأحد من الناس أي شيء في
 جسمي أو في نفسي . أنني لا أستطيع أن أكون وحدي . . أنني
 هاربة من وحدتي وعندما أكون مع زوجي فأنا أيضا وحدي . أنه
 يذكرني بحيي الأول . .

ولذلك فأنا أهرب من زوجي . . وعندما أكون مع الناس . .
 فأني لا أشعر بهم ولا أراهم . . وإنما أشعر أيضا أنني وحدي . .
 وأهرب من وحدتي هذه بالغرق في الخمر والدخان والعرق
 والصراخ . . وسأظل أطارد نفسي وأمشي على أطراف أصابعي
 وراء ظلي . . وأتهجم على الرجل الذي يذكرني بحيي الأول . .
 وأحطم ذكرى حيي الأول وأرتقي في أحضان الرجل الذي يجعلني
 أحتقر نفسي . . وأحتقر الزواج منا .

* * *

وحاولت أن أجعل لهذه القصة بداية أخرى فسألتها :

ولكن لماذا قررت أن تكوني راقصة ، مع أنك تستطيعين أن

تكونى مدرسة . . أن تكونى مهندسة . . أن تكونى رياضية . . أن
تكونى أما .

وقالت لى وهى تؤكد ، وأنا أصدقها هذه المرة ، أن هذه هى
بداية حياتها كلها : لقد قررت أن أكون راقصة وأنا فى الثانية
عشرة من عمرى . . لقد نهضت من النوم فى ساعة متأخرة . وكان
ذلك فى أحد أيام الشتاء . ونظرت فجأة فوجدت أمامى مرآة فى
نهاية الغرفة . . ولأول مرة أحسست أن بشرتى دافئة . . ساخنة . .
ولمست ذراعى يدي . . وشعرت برجفة ولففت ذراعى حولى . .
عانقت نفسى وملت بنحدى على كتفى العارية . وأرتجفت . ووقفت
أمام السرير . ونظرت إلى نفسى . . وجهى وردى . وقيصى
احمر . . ورفعت القميص قليلا . . قليلا ، ورأيت ساقي
جميلتين وأنزلت القميص ورأيت كتفين مستديرتين . . ورفعت
رأسى . . ورأيت وجهى جميلا مستديرا أيضا وأبتلعت ريقى . .
كأننى أمام شئ لذيذ . . شئ حلوا على لسانى . . ولا أعرف لماذا
رقصت . . على السرير . . وأمام المرآة . . وقررت أن أرقص بعد
ذلك فى كل مناسبة . . وبلا مناسبة . . وقررت أى أن أذهب إلى
إحدى مدارس الرقص . . ولكن أبى رفض . . وضربنى . .
وأمسك العصا . . وضربنى على ساقى . . وترك علامات زرقاء . .
كنت أراها وأصرخ . . وسافرت إلى باريس . . والتحقت بأحدى

مدارس الرقص .. ورقصت .. وصفق الناس .. لأننى كنت
أبذل مجهودا كبيرا فى الرقص .. بينما زميلاتى يرقصن بلا مجهود
فى خفة .. ورقصت وحدى أمام المرأة .. وبلا مرآة .. ولم أعد
أبذل مجهود فى الرقص .. وفى كل مرة كنت أفرغ من الرقص ،
أجده فى انتظارى .. أنه أستاذى الذى أحببته حبي الكبير ..
وكانت على شفثيه قبلة حاضرة يضعها على كفتى .. وعندما أعود
إلى البيت كنت أرقص له .. أنه أستاذى وأبى وأخى وزوجى ..
وكل شئ فى حياتى .. وعندما فوجئت برؤية أبى وأنا أرقص فى
أحد كباريهات باريس .. لا أعرف ماذا حدث .. ولكنى
سقطت على الأرض وأققت وأنا على صدر أستاذى وحبيبى الأول
.. أما أبى فقد ظل مريضا فى أحد الفنادق .. ولما شفى من مرضه
جاءنى يهدنى بالسفر إلى مصر .. وسافرت معه .. وطول الرحلة
لم ينطق بكلمة واحدة .. وبعد وصولنا إلى ميناء الإسكندرية ..
لزم أبى الفراش مرة أخرى .. ولم يبرح الفراش إلا ميتا .. منذ
ذلك اليوم وأنا أفكر فى أن أكون راقصة .. فلم تعد للرقص قيمة
ولا معنى .. فلن يغضب أحد .. فقد مات أبى .. ولن يعوضنى
عنه أحد .. فلم يعد يهمنى رأى أحد .. ولا حتى رأى .. فأنا يستوى
عندى ، أن يرانى الناس بملابسى أو يرونى بملابس الراقصات ..

لم يعد عندي ما أخفيه عن الناس . . لم يعد عندي ما أحبه . . أو
ما أحترمه ولذلك قررت أن يدوسني الناس بعيونهم . .

* *

ولا أعرف لحياثها بداية . . فهي في كل يوم تبدأ من جديد
للقضاء على حياتها . . أنها تستدرج الناس إلى قتلها وإحتقارها
وتسبقهم جميعا لتبصق على نفسها . .
مسكينة . . . أنها تبحث عن بداية لحياة كلها بدايات
للملايين الخيوط البيضاء ذات اللمعان الغريب !

عريس باللباس نسر

شاب حديث التخرج في قسم الفلسفة بكلية الآداب ، يذهب إلى بيت أحد الموظفين المتقاعدين . يدق باب الشقة ، ويسلم الخادمة رسالة ملفوفة ويطلب إليها أن تقدمها لسيدها . . . وتدخل الخادمة ، وبعد لحظات تفتح الباب وتقول للشاب : 'أدخل . . سيدى في الصالون ينتظرك . .

ويدخل الشاب حانى الرأس ويجلس على طرف مقعد وثير ، وقد وضع بعض الكتب وحقيبة وجريدة ومجلة على ركبته .

وينفتح الباب ويدخل « عبد الستار بك » وهو رجل طويل القامة له شارب مفتول وبين شفثيه سيجار غليظ ، وفي يده اليسرى مسبحة . . ويقف بالقرب من الباب وينظر إلى الشاب ويمد يده دون أن يتجه إليه . . فينهض الشاب وتسقط الكتب والمحلات فيدوس عليها بقدمه ويسلم على سعادة البية . وسعاده يضغط على قطعة القطن التي حشرها في إحدى أذنيه !

عبد الستار : أجلس مكانك . . أجلس !

الشاب : مع الشكر .

عبد الستار : ما الحكاية ؟ عندك كام سنة ؟

الشاب : ٢٥ سنة !

عبد الستار : من الشباب والفروسية والتطلع لمستقبل عظيم .
هل تركب الخيل ؟

الشاب : لا ..

عبد الستار : هل تلعب الشيش ؟

الشاب : لا ..

عبد الستار : كم مترا تستطيع أن تسبح في الدقيقة ؟

الشاب : لا أعرف السباحة ..

عبد الستار : هل تستطيع صيد الأوز بيدك اليسرى ؟

الشاب : لا أعرف ضرب النار .

عبد الستار : ما شاء الله . أذن أنت رجل مستقيم ، رجل عاكف
على الدراسة والعمل . هذا عظيم يا أبنى ! هذه سن المسؤولية
والأحاساس بالواجب والرجولة . لا بد أن لك أما ؟

الشاب : طبعا ..

عبد الستار : وأخوة طبعا ؟

الشاب : أربعة أصغر منى !

عبد الستار : لقد كنت أكبر أخوتي وكنت أنفق عليهم .
وهذه هي الرجولة أن يكون الإنسان كبيرا في السن وفي المقام ..
يتفق على أمه وأخوته وأقاربه الفقراء إذا استطاع .. هذا عظيم !
أقول أن لك أما .. وهي على قيد الحياة ؟

الشاب : موجودة ..

عبد الستار : أنت محظوظ يا بني .. دانا أمى ماتت . وهل لك
أب ؟

الشاب : مات .

عبد الستار : إذن أنت الذى تنفق على أمك وأخوتك .. هذه
رجولة تستحق أن يضحى الإنسان من أجلها .. وأكثر الناس
تضحية هم أعظم الناس .. طبعاً أنت موظف . وفي هذه السن
الصغيرة ؟ هذا عظيم . كم تكسب في الشهر ؟

الشاب : ١٥ جنيتها .

عبد الستار : ماذا ؟ ماذا تقول ؟ ١٥ جنيتها ، أى ٥٠ قرشا في
في اليوم ؟ ولكن ألا تكسب شيئا آخر ؟ هذا مرتب يكفى شابا
ليذهب إلى السينما مرتين في الأسبوع أو يدخن علبة سجاير كل يوم ..

الشاب : أننى أبحث عن عمل .

عبد الستار : عمل ؟ تقول أنك موظف ؟

الشاب : عن عمل بعد الظهر .

عبد الستار : هل تظن أنني مجنون ؟ هل تتصور بعقلك أنت ،
أنني أقدم ابنتي لشاب مثلك ؟ أنت لا تصلح . . لا تصلح أبدا .

الشاب : لا أصلح ؟ لماذا ؟

عبد الستار : وتسألني لماذا ؟ لماذا تريد أن تزوج ابنتي بهذه
السرعة . أنت ما تزال صغيرا وفلوسك أصغر من سنك . . ثم
أنا لا أفهم لماذا اخترت ابنتي بالذات ؟ هل دخل في رأسك أن أباها
متقاعد لا يعمل في الحكومة ، أنه أيضا لا يفكر وأنه تقاعد عن
التفكير ؟ أبدا ، أنني أفكر الآن في أسرتي وابنتي الوحيدة !
أنت مجنون يا أستاذ !

الشاب :

عبد الستار : لم تقل ما الدافع ؟ لم أفهم . .

الشاب : والله لا شيء إلا الحب !

عبد الستار : إلا أيه ؟ لا شيء اسمه الحب . . هذا كلام فارغ
وأوهام شبان مفلسين مثلك وشغل تياترو !

الشاب : ولكنها قبلت أن تزوجني .

عبدالستار : هي التي قبلت ؟ وأنا هنا طور طور ١٩ هل تظن
أن أوامري لم تعد تطاع — لا بد أنها أخبرتك بأنها ذهبت للسبيل
في الأسبوع الماضي على الرغم من أنني عارضتها .. لا بد أنها ظنت
أن كل شيء يمكن أن يسير هكذا .. أبدا !! أنا رجل جاد
وأوامري صارمة . فلا تحاول أن تغضبني على ابنتي ! ثم لم تكتب
في الطلب الذي قدمته لي ، ماذا تحمل من الشهادات يا حضرة
الأستاذ ؟

الشاب : اللسانس .

عبدالستار : ولماذا لم تشتغل محاميا بدلا من التدريس .. هذا
العمل الشاق القليل الأجر .

الشاب : اللسانس التي معي هي لسانس في الآداب ، وليست
في الحقوق ..

عبدالستار : فماذا تدرس للطلبة يا حضرة ؟

الشاب : أدرس الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس !

عبدالستار : تدرسها لمن ؟

الشاب : لطلبة المدارس الثانوية .

عبدالستار : وماذا تقول في هذه الفلسفة ، لا أفهم ما قيمة هذه

الفلسفة .. ما هذه الفلسفة ؟

الشاب : الفلسفة هي محبة الحكمة .

عبد الستار : محبة ماذا ؟

الشاب : الحكمة ..

عبد الستار : هذا حسن . محبة الحكومة واجبة .. وطاعة
الأوامر فضيلة كبرى .. الشعب يجب أن يطيع الحاكمين والأبناء
يجب أن يطيعوا آباءهم .

الشاب : أقول محبة الحكمة .. الحكمة ..

عبد الستار : ما الحكمة هذه ؟

الشاب : يعنى الكمال فى كل شئ ..

عبد الستار : يعنى أيه ؟

الشاب : فى الفلسفة نحن نتعمق الأشياء ونتساءل عن العلل
الكامنة وراء الأشياء التى يراها الناس بأعينهم فحسب ، أما نحن
فنذهب إلى أبعد من ذلك ..

عبد الستار : هو كل شئ عندك حب .. حب أبنتى وحب
الحكمة ؟! ولكن بماذا ترى هذه الأشياء التى تقول عنها ؟ إن
نظرك ضعيف جدا .. كم نظرك ؟

الشاب : عيني اليسرى ٦ على ١٨ .. وعيني اليمنى أضعف
قليلا .

عبد الستار : ما شاء الله . وتقول أنك ترى أكثر من الناس ؟
هذه هي الفلسفة ؟ !

الشاب : أريد أن أقول أننا نرى الأشياء بعقولنا ، ونضع
الوجود تحت « مقولات » وأستطيع أن أضرب مثلا . .

عبد الستار : لا ! لست في حاجة إلى أمثلة فعندى حضرتك
أحسن مثال ! إذن هذه هي الأفكار التي أدخلتها في رأس أبتى
وجعلتها تتصور أنها قادرة على أن تزوج من حضرتك دون
مشورتى ، وتجعلك تكتب طلبا تقول فيه : أن حياتكما قد أصبحت
شيئا واحدا منذ الأزل ! كلام فارغ ! من الذى أشار عليك بتعلم
هذه الفلسفة ؟

الشاب : أنا .

عبد الستار : أنا فهمت الآن . هل الفلسفة هي أنك لا تستشير
أحدا . لماذا لم تطلب رأى أحد أقاربك هل تدرس الفلسفة أو هل
تدرس القانون أو الطب ؟ هذه فلسفة ! تسميها محبة الحكمة ؟
ياأخى لماذا لا تحب الفلوس ؟ هل الفقر فلسفة ؟

الشاب : الحب هو هذا الوجود كله . .

عبد الستار : الفلوس هي هذا الوجود كله ، والفلسفة هي

هذا الإفلاس كله ، هي حضرتك ! ليس في جيبك مليم واحد
يا أستاذ . . مليم واحد !

الشاب : كيف ؟

عبد الستار : أسكت ! ليس معك فلوس توصلك إلى آخر
أى شهر ولو كان نصفه أجازات ؟ أنت بائس يا حضرة المدرس
يا حضرة الفيلسوف . بائس ومريض كم وزنك ؟

الشاب : ٥٥ كيلو . .

عبد الستار : يا أستاذ أنت تبعث على الرثاء . . أنت ستموت
قريبا . . قريبا جدا ! وزنك خفيف ، ونظرك ضعيف ومرتبك
١٥ جنيا . . يا أستاذ عش راهبا ، عش نباتيا . أكتف بما كان
يلبسه غاندى وهو فيلسوف مثلك . . أو أسرق . . أسرق يا حضرة
المحترم . .

الشاب : كيف !

عبد الستار : حتى السرقة لا تعرفها ! لا تعرف كيف تعطى
الطلبة دروسا خصوصية في الأجازة . .

الشاب : لا توجد دروس في الفلسفة . .

عبد الستار : كيف ؟ لا يرسب فيها أحد ؟

الشاب : من النادر جدا . .

عبد الستار : هذا هو الشقاء ، ولكن يا أخى أنت تستحق هذا وأكثر . . لماذا تدرس علما سهلا ، لماذا لا تشتغل بتدريس علم صعب يرسب فيه الطلبة عادة . . لماذا لا تدرس اللغة الإنجليزية ، لماذا لا تدرس الجبر والهندسة ؟

الشاب : هناك أساتذة مختصون .

عبد الستار : يعنى مفيش فايده ؟

الشاب : طبعا . .

عبد الستار : وهنا أيضا مفيش فايده !

الشاب : كيف ؟

عبد الستار : لم تفهم حتى هذا ؟ أقصد مفيش فايده أن أزوج أبنيتي لمدرس تعبان مثل حضرتك . أنا لا أنسى أن حضرتك ساعدتها في المذاكرة . وأنا لا أستطيع أن أزوجها لمثلك . . إلا إذا كنت أريد منك أن تعطيا دروسا خصوصية في مقابل ١٥ جنيا في الشهر أدفعها لك . . على سبيل المساعدة ، ولا أدري كيف تقبلها مني ؟ وأنا رجل طيب أثور أحيانا ولكن قلبي ينفطر دائما لمناظر الفقراء . .

الشاب : مساعدة ؟ أنا لست في حاجة إلى أى إنساى ؟

عبد الستار : تقول بوقاحة أنك لست في حاجة إلى مساعدة . .
يا أستاذ ليس مرتبك إلا مساعدة . هذا المرتب هو « بدل تسول »
. . هذا المرتب يغنيك عن مد يدك . . تفضل ! تفضل يا أستاذ
ولا تتعجل في الزواج كما تعجلت في دخول قسم الفلسفة !

الشاب : ولكنني أحبها !

عبد الستار : لا يوجد شيء اسمه الحب ! قلت لك ألف مرة . .
فاهم يا حضرة . .

الشاب : وهي تحبني . .

عبد الستار : كذب !

الشاب : هي التي قالت لي .

عبد الستار : لا بد أنك سمعتها بعينيك !

الشاب : أنت لا تتصور . . مدى هذه الصدمة في نفسي !
هذا حرام عليك !

عبد الستار : أخرس ! أنت وأمثالك تستحقون الصدم والهدم
والموت . . كيف تستطيع لنفسك يا حضرة المدرس المرابي الفاضل
أن تعذب فتاة من أسرة كريمة . . أن تنفق شبابها مع فقير واهم . .
بأي فلسفة تجعل عذابها مباحا حلالا . . ثم تقول دون حياء أنك

تحبها .. تحبها .. ماذا ؟ تحبها فقيرة دائمة مريضة ؟ إنصرف ! قلت
لك إنصرف !

الشاب : ولكن يا سعادة ال ..

عبد الستار : إنصرف ! إنصرف !

الشاب : الحل الوحيد هو ..

عبد الستار : هو أن تفكر كيف تعيش أنت أولا .. وأخوتك
يا حضرة الأستاذ وأم حضرتك .. هؤلاء أولى من أية فتاة في العالم
بالعناية والرعاية .. هذه هي الرجولة .. هذه هي التضحية ..
ما عيب حب الأم وحب الأخوة وحب التضحية ؟ شباب تافه
واهم .. إنصرف !

الشاب : لحظة يا سعادة البيه .. الحل الوحيد هو ..

عبد الستار : الحل الوحيد في الشارع مش هنا ..

الشاب :

عبد الستار : لا تتكلم أبدا .. حضرتك درست ١٣ سنة وتنال
جنيا وأحد عن كل سنة ، ثم خرجت محطما قصير القامة ، قصير
النظر ، قصير الحيلة .. أذهب يا أستاذ إلى أي مقبرة ، وأستعد
للموت على مهلك ! ولا تحاول أن تمد يدك الذابلة إلى أي ورثة

نصرة من بنات الناس . . نحن نسمى هذا حراما ، أما الفلسفة
فتسميه حبا ! كلام فارغ وقلة أدب !

الشاب : أنا آسف .

عبد الستار : العفو . . الرجوع إلى الحق فضيلة . . ولو كانت
عندك فتاة وتقدمت أنا إليها وكانت حالتى كحالتك لوجب أن
ترفضنى فورا دون مناقشة . . مع السلامة يا بنى . .

الشاب : كنت أريد أن أقول أننى آسف فلم أتصور أن من هو
في مركزك يتحدث بهذه اللهجة . . أن الذى . .

عبد الستار : قلة أدب ! تسخر منى ! أنت يجب أن تأسف
طول عمرك ، وأن تستلف عمرا آخر لتزداد أسفا على رأسك
المملوء بالأوهام ، وجيوبك الفارغة من القلوس . . أخرج يا أستاذ
. . لماذا لا تشتغل ماسحا للأحذية . . لماذا لا تبيع فول مدمس . .
هذه صناعات تجعل لك خبرة بالحياة ويجمع القلوس واحترام
بنات الناس . . إنصرف ! أخرج . .

الشاب :

أصبح بلا بصمت

- ١ -

ما يعرفه الناس عهما أنها إخوان . وأتتهما يلتقيان هنا في هذا
الركن من المقهى . وليس لهما أصدقاء . ويشرب كل
واحد منهما كوبا من الشاي . ويتناقشان ويودع أحدهما الآخر عند
باب المقهى . ويختفيان . وبعد أيام يعودان بنفس الطريقة إلى نفس
المكان . ولكنهما اليوم مختلفان قليلا . كل منهما أرتدى بدلة
وكرافته سوداء والحزن واضح عليهما . طلبا الشاي . عاودا الصمت
وأقرب أحدهما من الآخر وقال في هدوء بارد : أظن من المناسب
اليوم أن نتحدث عن الموت .

وقال الآخر :

- كفى ما حدث لنا . . لقد مات أبونا . . ودفناه وقبله دفنا
أنا . . وأنقطع كل ما لنا في هذه الدنيا . .
وعاد الأول يقول : لم ينقطع تماما . . فإزال هناك صلة تربطنا
بأبينا . . عمتي .
وأعتدل أخوه في جلسته . .

وقال : ما لها ؟

وبسرعة رد عليه الآخر : ما لها .. ما لها هو الذى يعينى ..
نحن بصراحة لا نعرف أين ذهبت فلوس أبينا . أنه لم ينس ما كان
بينه وبين أمنا .. لا نعرف ، ولكنه عاقبنا نحن الإثنين لأننا
صورتان من أمنا .. هذا الرجل الذى يرحمه الله قد ترك
أمواله لأخته .. ولم يشأ أن يترك لنا شيئا .

— لا أعرف ماذا تقصد ؟

— أقصد هذه العمة المجنونة التى تنفق أموالها على الجمعيات
الوهمية .. الخيرية .. مع أننا نحن الاثنين نصلح عضوين مؤسسين
لأية جمعية خيرية .. نحن أحق من كل هؤلاء النصابين الذين
يترددون على بيئها ويدعون لها بطول العمر .. وكارثة لو طال
عمرها ..

ولم يرد أخوه .. ولا يريد أن يرد .. أنه دفن شهيته فى الكلام
أيضا .. أو لعله يعرف أن أخاه هذا كثير الأوهام والأحلام ، وأنه
لا يريد أن يستمر فى الكلام عن الموت والمال وعن عمته هذه ..
وهو يفكر فى مشروعات أخرى .. يريد أن يترك القاهرة ويعيش
فى المنصورة من جديد .. أن له بعض الأقارب هناك .. ولكن
يمكن تفاديهم ، أو يمكن تحديد علاقته بهم من أول لحظة ،
وتكون هذه العلاقة هى إحتقارهم والرغبة فى أن يتفادوه ..

أنهم جميعا بقايا أسرة أبيه الذى لم يشأ أن يقرأ الفاتحة على روحه . .
لأن أباه لم يقرأ الفاتحة على روح أمه . . ولم يدرك أخاه أنه يفكر
بعيدا بعيدا ، راح يهزه بيديه . ويقول :

— أين أنت ؟

ويهز رأسه قائلا : أنى أبحث لى عن مكان بعيد . . عن هنا . .
وعنك أنت أيضا . .

وهو يعنى ما يقول ، فهو الأخ الأصغر وقد تعب وتعذب من
أخيه الأكبر ، وهو يرى فى قرارة نفسه أن هذا الأخ هو الذى
عجل بوفاة والده . . فقد تزوج من فتاة من الطريق ويدعى أنه
طلقها . . وأحيانا يقسم أنه خطبها وأنه فسخ خطبتها . ولذلك لا أحد
يعرف بيته ولا يعرف من الذى يعيش معه فى هذا البيت . .
وكثيرا ماذهب الأخ الأصغر إلى بيت أخيه الأكبر فى أوقات مختلفة
من النهار . ولم يجد أحدا هناك . وعندما عرف أخوه الأكبر ذلك
غير مكان السكن . ولم يدعه مرة واحدة لزيارته فى بيته . ولذلك
كان مجئ الاثنين إلى المقهى حلا لهذا الإشكال ونحلقا لإشكال آخر
عند زبائن المقهى . . فهم يسألون دائما من هما ؟ ولماذا يلتقيان هنا ؟
وماذا يقولان ؟ . .

وأنختلفت إجابات الزبائن . ولكن أحدا من الزبائن لم يتقدم

لها ، أو لم يقترب أو يحاول . وظل الأخوان لغزا مزدوجا . ثم اعتاد الناس عليهما وأنطبقت عليهما الحكمة الشعبية : ربنا أمر بالستر . . وربنا أدرى بعباده . .

— ٢ —

وفي اليوم التالي عاد الاخوان إلى نفس المكان . وكان الأخ الأكبر هو الذى بدأ الكلام . وكان الكلام قد احتبس في فمه . ولذلك كان يخرج به بسرعة وبقوة . وفي بعض الأحيان بصوت مرتفع . قال الأكبر :

— أسمع أريد أن أذكرك بشئ قديم من سنة أو أكثر . . كنا نتناقش في موضوع المعجزات التي تحدث لبعض الناس .

وقال أخوه الأصغر وقد ظهر عليه الضيق والقرف وتلفت حوله :

— لا أعرف أى موضوع تقصد . .

وحاول الأخ الأكبر أن يغري أخاه الأصغر بالاهتمام فقال :
موضوع الزواج . . زواجك أنت . .

— طبعا أنت لا تقصد هذا الموضوع . .

— فعلا لا أقصد هذا الموضوع وإنما موضوع آخر . فكرت

فيه طويلا ولا أفهمه بوضوح . . وأنت الذى يجب أن تبصرنى . .
 فأنت تعلمت وأنا لم أتعلم . . أنا دائم التفكير فى الجريمة . . فى القتل :
 وقد أهديت إلى نظرية : أن أحسن قاتل لك هو صديقك . .
 هو جارك . . أنه الإنسان الذى يعرف عنك كل شئ . . الذى
 يعاشرك . . الذى يعايشك . . يصادق الجريمة . . حتى يعتاد
 عليها ، فاذا وقعت لم يزعج . لا عند تنفيذها ولا بعد ذلك . . لأنه
 قد ارتكبها بالتفكير فيها طول النهار والليل . . وإن كنت أنا لا أفكر
 فى أحد بالذات . . ولكن أفكر فى أشخاص لا أعرفهم . . أدبر
 لهم الجرائم وأنفذها . .

وأتمجه إليه أخوه : وتذهب بعد ذلك إلى السجن . . وتهرب من
 السجن وتختفى فى مدينة أخرى بأسم مستعار . . وضمير مستريح
 وعندما يحنى الليل تضحك فى الظلام على هؤلاء المغفلين الذين لم
 يهتدوا إليك . . ثم تعود إلى ارتكاب جريمة أخرى بأسلوب آخر . .
 فلا يعرف البوليس من هو القاتل فى الحالتين . . وأحيانا تداعب
 البوليس فتبعث له بخطابات بامضاءات مستعارة تقول فيها : أنك
 رأيت القاتل . . وتعطيهم أسماء أناس آخرين . . وتتلذذ بتعذيب
 رجال البوليس . .

ثم يسكت ويبتلع ريقه وينفض مع سيجارته الكثير من قرفة
 على أخيه . ثم يقترب منه ليقول : كل هذا لأن أباك هو أحد رجال

البوليس . . وأنت تريد أن تنتقم من كل رجال البوليس ، لأنك لم تستطيع أن تفعل ذلك برجل واحد هو أبوك . قصصك قديمة وأفكارك شريرة . ولن تقتل إلا روحك . . ولن تسيل إلا دمك . . ولن تحاكم أحدا إلا نفسك . . لن تسجن في قلبك إلا خوفك : فأنت حارس الخوف وأنت الخوف . . حارسا وسجيناً !

وينفس الهدوء عاد الأخ الأكبر يقول : كنت أعرف أنك سوف تقول ذلك . . لكن ليس هذا ما أريده . . وإنما أريد أن نتعاون على فعل شيء . . أنت تكتب . . ولكن أنا الذى سأعطيك مادة الكتابة . . أنى أفكر من أجلك . . أنا كبرت ، وليس لى حظ فى الدنيا . وإنما أنظر إليك كأنك أبى . وأتمنى لو أنى تركت شيئاً من المال أو الأرض . . ولكنى لا أستطيع . . أنا أريد أن تكتب مجموعة من القصص المسلية للناس . وهى فى نفس الوقت خدمة لرجال البوليس . . خدمة لا تقدر بثمن . . أنى لم أكره والدى إلى هذه الدرجة البشعة التى تتصورها . . وأرجو أن تعطينى فرصة . .

وقال أخوه الأصغر : أنا أعرف أنك كاذب . . وأنت لا تريد الخير لنفسك فكيف تريده لآخر . . أنا أعلم أن السجن سوف يحل لك مشاكل كثيرة . . إيجار البيت . . والزوجة . . ثم أن السجن

سيكون تدريبا يوميا قاسيا — وتعذبا لنفسك وإذلالا لجسمك . .
أنا أعرف ذلك .

— أنا لا أعرف ذلك . . ولكن أرجو أن تسمعي حتى النهاية . .

وراح الأخ الأكبر يروي قصص الجرائم المشهورة التي ارتكبتها
بعض المجرمين . . ولكن لسبب سوء تقديرهم أمسكهم البوليس
في النهاية . .

وعاد الأخ الأكبر يقول : هل تذكر جريمة الممرضة التي
قتلت الطبيب . . أنها أحكمت ارتكاب الجريمة . . وسلطت عليه
الأشعة . . وأرتدت ملابس المريض وخرجت بعد أن مسحت
آثار أصابعها من أي مكان . وأرسلت خطاب تهديد إلى زوجة
الطبيب التي تغار منها . . وعادت الممرضة بعد ارتكاب
الجريمة إلى بيتها وأحرقت كل ملابسها . ولم يهتم بها أحد . . هل
تعرف كيف عرف البوليس طريقها . . أن زاراً من حداثها
قد سقط . . لقد فات المغفلة الغبية أن تجرق حذاءها أيضا !

— طبعا أنت سوف ترتكب الجريمة حافيا عاريا حتى لا يسقط
منك أي شيء في مكان الجريمة . .

— لأبد أن يراعى الإنسان كل الاحتمالات . . أقصد على رجل
البوليس أن يعرف كل هذه الاحتمالات . . هل تذكر البواب الذي

قتل صاحب العمارة .. أنه احتاط لكل شيء .. لقد أعجبت
 ببراعته وخفته .. لقد تسلق على المواسير .. ودخل الحمام .
 وخلع مفصلات الباب . وسحب الباب إلى الداخل . وتسلسل إلى
 الصالة وتام تحت الكنية .. وظل هناك سبع ساعات لا يسعل
 حتى عندما كنسوا الصالة .. أنه يعرف كل شيء عن الخادمة .
 ويعرف أنها لا تجيد الكنس أو الغسل أو الطبخ .. ولكن صاحب
 البيت بخيل ويفضلها على أية واحدة أخرى .. ويفضلها عليه ..
 لأنه لا يريد أن يتسلسل إلى شفته .. ودخل على صاحب العمارة
 وهو نائم وتحتقه .. على طريقة شجرة الدر عندما قتلت زوجها
 بضغطة المخدات على أنفه .. حتى يموت بلا ضوضاء .. ولكن
 هل تعرف ما الذى نسيه هذا البواب المغفل .. لقد ذهب إلى دورة
 المياه وقام بتركيب الباب فى هدوء .. غسل الباب بالماء والصابون
 .. وغسل يديه .. ووجهه .. ويبدو أنه سمع وقع أقدام ..
 أو أى صوت آخر .. فسقط طاقم أسنانه من فمه فى حوض الحنفية .

وجمع الأخ الأصغر الصحف والأوراق التى وضعها على
 المنضدة استعدادا لأن ينهض . فقد مل هذه السيرة . وقد سمعها قبل
 ذلك عدة مرات . وأختلف الأثنان . ووعد الأخ الأكبر بأن
 يكف عن روايتها ، وأن يحفظ مثل هذه المشاريع لنفسه ..

وقال للأخ الأصغر : أسمع يا برهام أنت أخى الأكبر ..

ولكن أشعر دائما أنك الأصغر . . وأنى مطالب بإنقاذك . .
 فلست كبيرا كما ترى ويرى الناس بل أنك ترضع الشر وتجتر
 الدم . . وتقيم المشاتق في الهواء . . وليس أمامنا إلا شيء واحد ،
 أن نفرق الآن وإلى الأبد . . وعليك أن تختار اسما آخر
 غير برهام الطحان . . وعلى أن تختار اسما آخر غير شريف الطحان
 . . فان القاهرة لا تتسع لنا نحن الاثنين . . بل تضيق عنك وحدك !

أما برهام فقد ترك أخاه يمشى غاضبا . كما هي عادته . ولكنه
 يعلم أنه سوف يجيئ في نفس الموعد وفي نفس المكان غدا . فهما
 اخوان لا ينفصلان ، وهو يعلم أن أخاه شريف يجبه ، وليس
 صحيحا أنه يرى نفسه الأكبر عقليا . . وإنما هو يرى أن أخاه
 الأكبر في مقام الأب . . بل أحسن من الأب . وهو يثير في قلبه
 الشفقة منذ ترك العمل في العام الماضي على أثر المشاجرة مع أحد
 رؤسائه . . وهو سوف يجيئ غدا ، لأنه يخشى أن يتصور أخوه
 برهام أنه لا يريد أن يساعده ماديا . . بالقليل من المال .

— ٣ —

وبرهام رجل طويل عريض مسرف في التدخين ، وفي شرب
 الشاي ويسرف في النوم ، ويسرف في اليقظة أيضا .

ولكنه رجل عمل . وهو لا يضيع وقته ، وهو يعلم أن أخاه

شريف رقيق ضعيف ، وأحيانا يصفه بأنه جبان . ويعزو سبب هذا الجبن إلى التعليم وكثرة القراءة والإغراق في الخيال .

ولذلك ذهب برهام إلى عمته سعادات الطحان في بيتها بالمعادي . . لقد مضى أكثر من يومين لم يرها . . فبعد جنازة والده لم يتوجه إليها ولم يسألها عن شيء . وهو في الحقيقة يريد فقط أن يعرف أن كان أبوه قد أوصى له بشيء . فقد كانت هي موضع سر أبيه . وكان هو يسخر منها ويقول لها : كان من الواجب أن يتزوجك أبي . . ولكن يا خسارة لقد ولدتما متأخرين عن عصر حتشبسوت بخمسة آلاف سنة . . ولم تكن عمته تضحك لهذه النكتة . . وكان يحاول أن يشرح لها المعنى الذي يقصده . .

وفي الطريق إلى عمته أعد لها في رأسه الحوار المطلوب . والقصص والنوادر . ووضع على وجهه ستارا زائفا من الحزن على وفاة الوالد . . والشكر له على أنه قد ترك وراءه هذه العمة الغالية . التي هي صورة من أبيه . .

وعلى باب بيت عمته وجد الخادمة أنعام . . إنها ابنة خاله أيضا لقد ارتدت أنعام الملابس السوداء .

أذن عمته سوف تكون في تمام الحزن والأسى . فالحزن قد فاض على الباب وأمام الباب . وأندفع إلى داخل البيت والدموع انفجرت من عينيه بقدره غريبة . . وأتجه إلى غرفة عمته ، وهو يعرفها وأنحنى على ركبتيها وراح يبكي كالطفل : مات يا عمتي

.. مات .. لم يعد لنا أحد .. لقد كان قلبي كالحجر .. ذاب
 يا عمتي ذاب .. لقد رأيت أبتسامته وهو ينظر إلى .. لقد عاتبني
 وسمعته يقول ساحتك يا بني .. ساحتك .. ألف رحمة تنزل
 عليه .. ألف رحمة ..

وأخفت دهشة العمه في هذه المظاهرة الباكية وغلبتها الدموع
 هي الأخرى .. وجاءت الخادمة ورأت الأثنين يبكيان .. فأتجهت
 إلى مكان في المطبخ وراحت تبكي هي الأخرى ..

ومضى وقت عليهما وهما في صمت تام .. يحرك كل منهما
 رأسه ولا يرفع عينيه عن الأرض .. وكانت عمته سعادات هي
 أول من تكلم .. فقالت في حزن واضح .. وأرتياح أكيد : يا ابني
 أنت راجل .. هذا لا يصح ..

وأستراح هو الآخر إلى هذه البداية : كنت أقول لنفسي ذلك
 يا عمتي .. ولكن لا رجل أمام الموت .. الموت له جلال .. وله
 رهبة .. وكلنا أمامه أطفال .. أقل من الأطفال .. كلاب أمام
 الموت .. تصوري زوجتي .. أغنى عليها ونقلتها إلى المستشفى
 .. والله أعلم .. أن كانت ستموت هي أيضا .. مع أنها لم تر أبي
 إلا مرة واحدة .. ولم تكذ تراه حتى هجمت على يده فقبلتها ..
 لقد تمزق قلب أبي .. عندما عرف أنه يشبه المرحوم والدها ..
 تماما .. وأخرجت من حقيبتها صورة لتؤكد له ذلك .. وكانت

الصورة طبق الأصل .. المرحوم بابا .. مصيبة يا عمتي .. لا أنا
قادر أرجع البيت .. ولا قادر أزورك هنا ..

— مصيبة يا أبني .. مصيبة .. ربنا يصبرك يا أبني .. البيت
بيتك .. وبدل من أن تعيش بمفردك .. وأنا بمفردى .. تعال
يا أبني .. همنا واحد .. ومصيبتنا واحدة .. تعال يا أبني ..
يا ريحة الحبيب الغالي ..

وفي تلك الليلة أقام برهام في بيت عمته .. ورأته عمته
يقفل النور .. ويتأكد من محابس الحنفيات .. ويقفل الباب
الخارجي بالمفتاح .. ويتأكد من أن عمته قد تغطت تماما أثناء النوم
.. وفي الصباح يتوضأ ويصلى .. ويوقظ عمته لصلاة الفجر ..
ويحرص على أن تتناول عمته الدواء في مواعيدها .. ومن الأدوية
الكثيرة عرف أن عمته تسرف في تناول المنومات والمنبهات ..
وتتناول أقراصا لتنشيط الكبد قبل الأكل وبعد الأكل ..

واستراح إلى الإقامة في بيت عمته سعادات .. واستراحت العمة
إلى ابن أخيها برهام .. وتندمت على أنها لم تعرفه من وقت طويل ..
فهو ليس ذلك الجاف الغليظ الخفيف الذي صوره أبوه لها ..

ويبدو أنه نجح في كل الاختبارات الخبيثة التي عقبتها عمته ..
فقد تركت بعض الفلوس في أماكن مختلفة من البيت .. وبقيت
الفلوس في مكانها وبعدها ..

وحاولت أن تخرج الفلوس من تحت المرتبة أمامه ، فكان يضع
عينه في الأرض . . ولم تلاحظ أنه أقرب من المرتبة . .
وتركته مع الخادمة أياما متتالية . . وعادت تسأل الخادمة . .
ولكن الخادمة أكدت لسيدها أنه لم يبرح مقعده . . ولم يذهب
إليها في المطبخ . . رغم ما بينهما من استلطاف قديم . .
بل أن الخادمة لم تخف عن سيدتها أعجابها بشكله وعقله ووجهه
الشديد لعمته . . وإخلاصه في حزنه على أبيه . . وأمتدحت أدبه
وأحتشامه في كل شيء . .

— ٤ —

وفي نفس المكان من المقهى . . ألتقى شريف وبرهام . . وكان
شريف هو أكثر الاثنين حرصا على الكلام . .
وقال لأخيه : أنت الآن أحسن حالا . . وأهدأ بالآ . . ألم
أقل لك أن إنشغال الإنسان بالأعمال النافعة هو الذي يغرق
كل شر في داخله . . والمثل الشعبي يقول أن اليد البطالة نجسة
أو لابد أن تكون نجسة ، وأنت الآن تزرع الحديقة لعمتي . .
وتشرف على البيت . . وتعتذر لها عن حضور الجمعيات الخيرية
. . أنت الآن مشغول وأنت الآن قريب من الوضع السليم لك . .

وضحك برهام لأول مرة منذ وقت طويل وهو ينظر لأخيه شريف كأنه يقول له : أنت ساذج .. أنت على نياتك ..

ولم يفهم شريف سر هذه الضحكة ومضى يقول : هل وصلت إلى شيء .. هل ترك أبونا عندها بعض المال لنا ..

وهز برهام رأسه يقول لا ..

وعاد أخوه يسأله : لم أفهم .. لم يترك عندها مالا .. ليس معقولا هذا .. أنه مات في بيتها .. وأنت تعرف عمك بخيلة شحيحة .. وأنا لا أستبعد أن تكون هي التي قتلت زوجها من الجوع .. أو هي التي بست له السم في الطعام حتى مات ممزقا الاحشاء .. أنت وحدك الآن في وضع يسمح لك بأن تقول ..

وأقرب برهام من أخيه ، وكما هي عادته تلفت حواليه وقال : أنت أنهيت من كلامك ..

وهز أخوه رأسه بما معناه : نعم ..

فقال برهام : أنا فعلا قريب من الوضع السليم .. أنا الآن أعرف كل شيء عن عمي .. ماذا تأكل وماذا تشرب .. وكيف تأكل .. ومتى تأكل .. وما الذي تعمله بالضبط في هذه اللحظة .. أنها تقلب في الحلل لتتأكد من أنه لا يوجد طعام قد تبقى من الأمس .. وهي الآن تشم أكواب الماء .. وبعد ذلك تفتح علب السكر والشاي

والبن وتفتشها بدقة .. وتعد قوالب السكر .. وهى الآن تقلب
فى دفتر الحساب .. وتضرب ٧ فى ٢٨ .. سبعة قروش لبن
ونخبز ويبيض فى ٢٨ يوما من أول الشهر حتى الآن .. وسوف
تنظر من النافذة .. وتصرخ على الخادمة لتأتى بالمشة لتطرد
الذباب .. وسوف تجئ الخادمة تصرخ وتقول : تشتري د.د.ت.
يا ستي .

وتتظاهر عمتى بأنها لم تسمع .. لأنها لا تريد أن تسمع ..
وفى مثل هذه الحالات أتدخل أنا وأقول أن الـ د.د.ت. ضار
بالصحة ، وأنى قرأت بحثا لأحد الأطباء ، يقول أن اللبن يمتص
الـ د.د.ت. .. ولذلك فالبيت الذى يدخله الـ د.د.ت. يجب ألا
يدخل فيه اللبن ..

وبلهجة جادة جدا حاول شريف أن يقطع هذا السيل من
الاعترافات فقال : ولكن ليس هذا صحيحا بالمرّة ..
— ماذا تقصد ..

— أقصد أن الـ د.د.ت. ليس ضارا إلى هذه الدرجة ..

— أنا لا أعرف إن كان ضارا أو نافعا .. ولكن هذا ما أقوله
.. حتى لا تشتري عمتى هذه المادة .. وحتى تطمئن إلى أننى
لا أريد فلوسها ..

— آه .. آه .. نسيت ..

— وأعرف جدول الأكل بكل دقة . . اليوم الأحد . . أنها
تأكل كوسة . . وغدا فول مدمس بالبيض . . وبعد غد سبانخ . .
وملوخية . . وبسلة . . وفاصوليا . . ومسقعة . . بدقة تامة . . ولم
يحدث أنها غيرت هذا النظام . . هل فهمت . .

— فهمت . . وبعدين؟

— وبعدين؟ لاشئ . . أننى فقط قريب من الوضع المناسب . .
أننى الآن أذاكر الأرض . . أننى مثل لاعب كرة نزل إلى أرض
الملعب ويقوم بعملية تسخين لنفسه . . أمشى على الأرض . .
وأدرسها وأجرى بين العلامات . . وأرتدى بين الحشابات . .

— آه . . آه . . فهمت . . أنت الآن صديق للصحية . . أنت
الآن أصبحت أقرب الناس إلى القتل . .

— تماما بالضبط . . ولن أقع فى يد البوليس . . لقد حسبت
كل شئ . . لن أترك أثرا . . ولا بصمة واحدة .

— أذن أنت قد قررت أن تقتل عمى . .

— هذا قرار . . لى ولك . .

— وما داخلى . .

— أنت الوحيد الذى يعرف ذلك . . وفى نفس الوقت أنت
لست مطالبا بأى شئ . . أننى أعرض عليك أفكارى فقط . . أننى

أضعها أمامك مثل بكرة خيط . . وسوف أقوم أنا بدور الإبرة
التي تلتقط الخيط وتنفذ به إلى ثوب الجريمة . . وأنت ترى
هدوئي . . وأطمئنتاني . . لأنني قد فكرت في كل شيء . . أسألني
. . أختبرني . . أمتحنني . .

— هل هذا ضروري ؟

— ضروري جدا . . لي ولك . .

— دعك مني . . فأنا لا أراها ضرورية لك أنت . . ليس من
الضروري أن تدخل السجن . . ولا أن تموت أشنع موته . . ليس
ضروريا أن أتعب بفقرك . . ولا أعرف إن كان من الضروري
أن تصبح زوجتك أرملة . . وأولادك — إن كان لك أولاد —
يتأى . .

— أنت تعرف أنني لم أتزوج . . ولن أتزوج . . فلا أريد
أن ينجئ لهذه الدنيا صورة أخرى مني . . فأنا صورة لا ضرورة لها
من أبي . . أبي أيضا كان قاتلا . .

— أنت كذاب . . لم يقتل . .

— أنت عبيط . . لقد قتل . .

— أنت تريد أن تشوه الدنيا كلها لأنك مشوه . .

— بل لأن الدنيا مشوهة . . ما الذى تراه فيها من جمال . . أى جمال فى أن تكون أبنا لرجل قاتل قاس أتهم أمك بالخيانة . . أى جمال فى أن تكون عمك هذه المريضة البخيلة تملك كل هذا الذى تملكه . . أى جمال فى أن شابا متعلما مثلك يتفق ماله القليل على رجل نذل جبان مثلى ؟ أى جمال فى أن تكسب قوتى بالدم لأننى لا أعرف كيف أكسبه بالعرق . .

وسكت الاثنان مرة واحدة . . كأن الجريمة قد تفلت وكأنهما ينتظران رجال البوليس بين لحظة وأخرى . . ونهض الاثنان فى وقت واحد . . ووقف الاثنان أمام الباب ولم يلاحظا أن النقاش كان عاليا فتنبه بعض الزبائن إليهما . . ولما وقف الاثنان أمام باب المقهى كانت العيون تتجه إليهما . .

— ه —

وفى ساعة متأخرة من الليل ذهب برهام يبحث عن دليله — وأسمها الحقيقى جلييلة — ولكنه يسميها دلييلة . . لأنها تناديه بشمشون . . ودلييلة راقصة فى أحد كباريات شارع الهرم . . وكان فى حالة لا تسمح له برؤية من يجلس إليها . . فى أحد أركان الكباريه . . أنه يعرف ما الذى تصنعه . . وما الذى يصنعه

الزبائن .. وهو الذى أختارها ورضى بها وبأسلوبها فى الحياة
ولا أعترض له على شئ .. وهو الذى قال لها : نحن من طينة
واحدة .. أنت أخط النساء وأنا أخط الرجال ووجودنا معا صورة
يجب أن يعرفها كل الناس حتى لا يفعلوا مثلنا ..

وعندما طلبت جليلة إليه أن يتزوجها أستنكر هذا الطلب قائلاً :
لا أسمع منك هذه العبارة مرة أخرى .. هذا إذا أردت أن تعيشى
.. أننى لا أقوى على مقاومة رغبتى فى أن أقتل كل إنسان يرتبط
بى .. أنا القطعة التى تأكل أولادها ..

وقد اعتادت جليلة على مثل هذه المواقف الحادة منه .. ومن
غيره فالتاس أمام الخمر والقمار وحوش .. فالتساء كالفلوس هى
القادرة على إمتحان صلابة الرجال .. أخلاق الرجال .. وقد
سقط برهام فى كل إمتحان .. فهو ساقط فى نظرها .. ولذلك
يشير شفقتها .. والرجال جميعا يدخلون قلبها من باب الشقة ..
وإن كان برهام هذا قد أقفل الباب وراءه فلم يتخط عتبتها رجل
آخر ..

وعندما ذهب إليها فى الكباريه .. لم تكن لديه أية رغبة فى شئ
.. لا فيها ولا فى فلوسها ولا فى النظر إليها .. بل أنه لاحظ علامة
على خدها وأخرى على ساقها .. ولم يجد نفسه تطاوعه فى أن يعلق

بشيء . . ولكنها رغم ذلك وضعت يدا على خد . . تحق العلامة . .
ووضعت ساقا على ساق تحق العلامة . . وظنت أنه رأى ذلك . .

وأنه جاء ليحاسبها على الذي فعلته في الأيام الماضية عندما كان
يبست في بيت عمته . . وكانت تخشى القضيحة في الكباريه . .
فأقربت منه تحق فزعها في لفها عليه : مالك يا حبيبي . . أنت
وجهك مخطوف مالك ياسيد الرجال . .

أما سيد الرجال فقد طلب منها : أن تذهب معه إلى البيت . .
ولما توسلت إليه أن ينتظرها ولو نصف ساعة حتى تفرغ من
رقصتها هز رأسه قائلا : أذن أسبقك إلى البيت . . فأنا متعب . .

وأستراحت نفسها قليلا وسألته :

هل حدث شيء في بيت عمك ؟ . . هل جرى شيء لأخيك
شريف ؟ ماذا جرى ؟ . .

ولكنه لم يتلق بكلمة . .

ولما أكنى بأن قال لها : سأسبقك إلى البيت . . هاتي معك
بعض السندوتشات . . وإذا وجدني نائما فلا توقظني . .

وتركها . . وعاد إلى البيت . .

أما جليلة فقد أنزعجت . . فهذا موقف لم تره من قبل . . أن
هدوء برهام مريب . . فهو ليس هادئا في كل تصرفاته . . أنه

يتكلم بصوت مرتفع .. حتى أثناء النوم .. وهي لا تنسى .. يوم
جاء إليها في الكباريه منذ شهر وصفعها أمام الناس لأنها تأخرت
عن موعدها ..

— ٦ —

وقبل الفجر بقليل صحت جليلة على بكاء برهام .. أنه يصرخ
ويتقلب في فراشه ..

وأيقظته جليلة : مالك يا حبيبي .. أنا عمرى ما رأيتك بهذه
الحالة .. ماذا جرى لك ؟ من هم هؤلاء الناس الذين تتحدث عنهم .
وصحى من نومه .. وجلس في فراشه يسألها : ما الذى قلته ..
بدقة ماذا قلت ؟؟

— قلت .. السبانخ .. ملعقة واحدة .. أنتهى كل شئ .. لم
يرنى أحد .. كانت الخادمة فى السوق .. فالיום يوم السبانخ ..
لا بصمات .. لا بوليس .. أكتب .. يا أستاذ يا متعلم .. أكتب
هذه القصة ..

وأندهش برهام .. وسألها : هل أنا قلت هذا .. كل هذا ؟؟
— نعم .. وأكثر من ذلك ؟؟

ثم استطردت :

— من هذه التي أسماها أنعام .. راقصة أيضا ؟؟ لا بد أنها راقصة درجة ثالثة لأن أحدا لا يعرفها .. أنعام ؟؟ وهل هذا أسم راقصة ..

— أنعام .. أنعام هذه خادمة عمتي وبنيت خالي أيضا .

— خادمة عمتك .. أنت وصلت إلى هذه الدرجة .. تعلم بأنعام وأنت نائم في حضني .. خادمة ؟ عند عمتك البخيلة لا بد أنها خادمة بجنيه في الشهر .. أنا عارفه أنك رمرام ..

— وماذا قلت أيضا لها .. قولي أريد أن أعرف ..

— ظلمت تقول : الفلوس تحت المرتبة .. الفلوس .. أنا المسئول أنا وحدي .. أخى لا دخل له ..

— أعوذ بالله .. كابوس فظيع .. أنها نتيجة طبيعية للهباب الذي شربته أمس ..

— أنت تشرب الهباب .. وأنا أموت نفسي كل ليلة من أجلك .. لكي آتي لك بأحسن المشروبات .. وأشيك الملابس وأفخر السجائر .. ثم تذهب إلى محلات الهباب لتشربه مع أنعام .. الله يقرئك ..

- أنت لا تفهمين . . سوف أروى لك ماذا حدث في بيت عمى . . أن أنعام هذه سيدة عجوز عمرها ستون عاما . .
- وأنت منذ متى تعرف الفرق بين الصبية والعجوز . .
- صدقيني . .
- أنا لا أصدقك . . !؟
- لا بد أن تصدقيني ولو هذه المرة . . كم الساعة الآن . .
- ما يزال أمامنا عشر ساعات حتى يجئ موعد أخيك على المقهى . .
- كم الساعة يا جليلة يا حبيبتى . . أنا تعبان جدا . . أعصابي مشدودة على آخرها . . قلبي يدق . .
- ألف نهار أبيض . . أصبح لك قلب . .
- ويبدو أنني سوف أفقده الآن إذا لم تخبريني كم الساعة الآن .
- حتى لا تفقده أنها السادسة صباحا . .
- أريد كوبا من القهوة السادة . .
- كوب على الأقل . . وأسمها أنعام . . الله يقرفك . .
- ستعرفين فيما بعد . .
- وأمام هدوء برهام غير العادى واضطرابه أيضا . . وأصفرار

وجهه . . لم تحاول جلياة أن تثيره . . وأكتفت بما قال . . أملا
في أن تسمع حقيقة ما حدث . .

وبعد أن شرب القهوة . . أرتدى ملابسه . . وكان واضحا أنه
مسلوب تماما . . وأقرب منها وطلب إليها أن تواصل النوم . . وأنه
سوف يذهب للقاء بعض الأصدقاء على المقهى . . وأنه بعد ساعة
سوف يعود إلى البيت وعليها أن تواصل نومها في هدوء . . وعلى
غير العادة قبلها على نحتها . . وصحب عليها الغطاء . . وقبل أن
يقفل الباب وراءه ، وعلى غير عادته رجع قبلها مرة أخرى . .
وأختفت دهشتها تحت الغطاء ونامت . .

وبدلا من أن يذهب إلى المقهى ، أتجه مباشرة إلى محطة مصر . .
وفي أحد الشوارع الجانبية وجد مقهى مفتوحا . . لا يعرف أحدا
ولا يعرفه أحد . . وفي أحد الأركان جلس وطلب شايا باللبن
وأشار إلى أحد باعة الصحف . . وأشترى صحف الصباح كلها
على غير العادة .

وعندما أبتعد عنه بائع الصحف ، فتح أول صحيفة . . وجمدت
عيناه على الصفحة الأولى . . عناوينها تقول : جريمة غامضة في
المعادي . . شاب يموت مسموما في حديقة إحدى قريباته . .

وتروى الصحف تفاصيل الحادث . .

أما هذا الشاب ، فهو شريف الطحان .

أما عمة القتييل السيدة سعادات الطحان فهي لا تهم أحدا . .
ولا تهم الخادمة التي تعمل في بيتها منذ عشر سنوات . وهي
لا تعرف ما الذي حدث . . ولماذا جاءها ابن أخيها المتوفى لأول مرة
منذ وقت طويل . .

ويغنى على برهام الطحان في المقهى . .

ويلتف حوله الناس ويحاولون تفويقه . . ولكنهم يفشلون . .
ويستدعون سيارة الأسعاف . . وتحمله السيارة إلى أحد المستشفيات
. . ويفيق وقد ألفت حوله رجال الشرطة والنيابة وعندما يتحقق
من وجودهم إلى جواره . . يقترب وكيل النيابة ويقول له . . ماذا
جرى أنت تقول كلاما غريبا . . تتحدث عن السم . . والقتل . .
وعن أخيك . .

وهنا يدرك برهام الطحان كل شيء بوضوح . . ويقول : نعم
أنا الذي قتلت أخي أنا وضعت السم في طعام عمتي . . لأنها
تخفي أموال والدي . . ولا أعرف لماذا ذهب أخي . . لا أعرف
. . أنا غلطان لقد أطلعت على كل شيء . . لا أعرف ما الذي جعله
يميت نفسه . . لماذا ذهب إليها . . لماذا أكل السبانخ . . أنه
يوم السبانخ . .

ولم يفهم وكيل النيابة ما الذى يقوله برهام . . وعاد برهام يؤكده
له : أنها قصة طويلة . .

ويروى له تفاصيل ما حدث . . وكيف أنخني السم في طبق
السبانخ . . وكيف أن ضميره عذبه بعد ذلك . . ويستشهد بصديقته
جليلة . . وكيف أنه ظل يهدى طول الليل . . وإن كان لا يهتم
كثيرا أن تعيش عمته أو تموت . . وكان يهيمه أن تموت أكثر . .
ولكن لم يتصور أن عقاب السماء سوف يكون قاسيا إلى درجة
أن يموت أخوه . . أحب الناس إليه !

— ٧ —

وحوكم ونقلوه إلى السجن . .

ومضت سنوات . . ولم يفلح السجن في إراحة ضميره . . أنه
يبكى كثيرا ويضرب عن الطعام . . ويحاول زملاؤه في السجن
أن يهونوا عليه . .

وهم يؤكدون له أن السماء لم تقفل أبوابها في وجه المعذبين . .
فهو لم يشأ أن يقتل أخاه . . ولكن عمته لها عمر . . وهذا العمر قد
أختصره الله من عمر أخيه . . أنها إرادة الله وشأته إرادة الله أيضا
أن يظل برهام مثل « طفاية السجائر » توضع فيها بقايا العذاب
ولا تحمد . . وإنما تظل تكويه وتخنقه . .

وفي أحد أيام الزيارة المعروفة في السجن . . طلبت أنعام رؤيته
 كانت مفاجأة . . أن جليلة توقفت عن زيارته . .
 ترددت كثيرا في أول الأمر . . ثم أنشغلت وتوقفت زيارتها . .
 بل أنه هو الذي طلب إليها ألا تزوره . . وأن تعيش وتعيش . .
 فالدنيا حلوة . . والدنيا لم يخلقها الله لأناس يكرهون حياتهم . .
 ويكرهون أن يعيش الآخرون . . وجاءت أنعام . . وفرح بها
 برهام الطحان . . وكانت أول زيارة لها . . وحملت معها طعاما . .
 وبعض الكتب . . والملابس . .

ثم قالت له : يا برهام . . أنت لم تقتل أخاك ييه . . عمك
 هي التي قتله . . أنا رأيته وهي تضع له السم . . أنا رأيته
 بعيني . .

ثم أخرجت من ملابسها مصحف ووضعت على عينيها وقالت :
 وحق هذا الكتاب الكريم . . وزبنا يعينى أن كنت كاذبة !

وكان برهام لا يصدق ما يسمع . . ولا يدرى فائدة ما يسمع . .
 وعادت أنعام تؤكد له ذلك : أنها مجرمة يا سى برهام ييه . . أنها
 مجرمة . . أنها قتلت الكلاب التي كانت عندما بهذه الطريقة . .
 أن زوج بنتها صيدلى كما تعرف . . وقد زارنا قبل مجئ المرحوم
 شريف بيوم واحد . . وأقفل الباب عليهما وقتا طويلا . .

وهنا ظهر الاهتمام الشديد على وجهه وسأل أنعام : ولماذا زارها
أخي شريف ؟ لماذا ؟ هل تعرفين يا أنعام . .

— جاء يسأل عنك . . وقالت له عمتك أنه لن يجيء الليلة . .
وطلبت إليه أن يبيت عندها . . وعانقته . . وأخرجت له كل
ما عندها من حلوى . . وأعطته فلوسا . . وسألته ما الذى يحب
من الطعام . . فطلب الملوخية . . ولم يكن ذلك يوم الملوخية . .
كان يوم السبانخ . . وطلبت منى أن ألتى بالسبانخ فى الجنة . .

وسكنت لحظة وجففت دموعها . .

— وعندما وضعت الطعام على السفرة . . طلبت هى منى أن
أخرج لأشترى بعض الكوكاكولا . . رغم أن الثلاثية كانت
مليانة . . وأندهشت . . ولسبب لا أعرفه الآن . . تأخرت قليلا
فى المطبخ . . رأيته تدخل بسرعة . . على أطراف أصابعها وتلفت
وراءها . . ثم تخرج ظرفا من جيبها . . نفس الظرف الذى أحضره
الصيدلى وتفرغه فى الملوخية . .

— آه . . يا حبيبي يا شريف . . أنها أذن لم تأكل السبانخ . . لم
تأكل السبانخ . . لقد ملأها سما . .

ومسحت أنعام دموعها وقالت . .

— أسمع يا سى برهام ييه ، أنا كلمت سى حامد البكرى

المحامي اليوم .. أنه يسكن بجوارنا .. وذهبت معه إلى القسم ..
وأخذوا أقوالى .. وربنا سيفك ضيقتك قريبا .. سى حامد
البكرى قال للسيدة حرمه .. أنه سوف يخرجك من السجن ..
وسوف يضع عمته ، فلا تحزن !

ولإنهار برهام الطحان وهو يصرخ ..
— أبدا .. أنا القاتل .. أقتلوني أنا .. أنا قتلت أخى ..
ثم يدخل .. ويختفى ..
وتعود أنعام إلى بيت السيدة سعادات الطحان !

— ٨ —

ويعاد التحقيق فى القضية ..

وفى المحكمة يعرف برهام الطحان أنه لم يقتل أخاه .. فهو
وضع فى طعام عمته .. مادة سيانور البوتاسيوم .. ولكن المادة
التي مات بها أخوه هى مادة الاستريكتين التي يقتلون بها الكلاب
الضالة ..

ويسأل برهام الطحان : ولكن لماذا قررت عمتى أن تقتل أخى ؟
لماذا ؟ أنها لا تعرفه ! أنه لا يزورها ؟ أنها لم تسألنى عنه مرة واحدة ؟
أنها حاولت أن تتصل به عن طريقى .. ولكنه هو الذى رفض ..

وعلم في المحكمة أن والده كان قد أوصى بكل ما يملك إلى أخيه شريف . . وترك هذه الوصية عند عمته . . ولم يشأ أن يوصى له بشيء . . لأنه حاول أن يقتله أثناء نومه . . ولذلك قررت عمته أن تتخلص من الوارث الوحيد لثروة أبيه . .

وأفرجت المحكمة عن برهام ويوم خروج برهام من السجن هرب من رجال البوليس وعاد إلى السجن مرة أخرى . . أنه لا يريد أن يخرج أنه مصر على أنه قاتل أخيه . .

وقرر أن يبحث عن عمته . . وأن ينتقم منها . . ولكن عندما قابلته أنعام راح يقبل يديها ويقول : أنت أعطيتني أبغض شيء في الدنيا . . أعطيتني حريتي . . حرية أن أبكي أمام الناس . . وأن أندم علنا . . وأن أرى إحتقارى في عيون الناس . . السجن أرحم . . المجرمون أرحم . . الزنزانة أوسع من هذه الدنيا التي ضاقت في وجهي . .

* * *

ويعود إلى نفس البيت الذي كان تسكن فيه « جلييلة » كل شيء على ما هو عليه . .

يفتح الباب . . يدخل . . يجد ملابس أخرى على الشماعة . . وزجاجات . . وأكوابا . . وكنوسا . . ويجلس بعض الوقت . .

ويهرز رأسه كأنه يقول لكل شيء حوله : معك حق .. معها حق ..
حال الدنيا .. أنها تعيش في خوف .. وفي حاجة إلى رجل ..
إلى غفير .. يحرسها .. بقلوسها .. وتعطيه جسمها فوق البيعة ..

وينهض عندما يفاجأ بأن جليلة قد عادت من عملها في الكباريه ..
ولا تكاد تراه حتى تنهار بين ذراعيه .. من هول المفاجأة :
من الخوف .. والفرحة ..

ويهرز رأسه ويستأذنها في أن يعود .. وتحاول أن تشده .. وأن
تفهم ..

ولكنه تخلص من ذراعيها .. أنسلخ من جلده .. ومن جلدها
أيضا ..

* * *

ويعود إلى بيت عمته .. فليس له مكان آخر غيره .. هنا مات
أبوه وقتل أخوه .. وهنا كان يحاول أن يقتل عمته ..

ولم يبق إلا هو .. وإلا هذه الخادمة أنعام ..

ويجد أنعام في المطبخ .. كأن شيئاً لم يتغير .. أنها مثل المقاعد
في البيت .. والأشجار في الحديقة تواصل حياتها ووضعها
واستمرارها ..

ويندهش لهذا الهلوع في كل شيء حوله ..
ويدخل المطبخ ويسأل أنعام : ماذا تصنعين ؟
وتظهر السعادة على وجهها وتقول : أطبخ لك الغذاء .. يامى
برهام ييه ..

- تطبخين ماذا ؟
- قلقاس ..
- قلقاس .. آه .. لم يكن هذا في قائمة طعامها ..
- بالهنا والشفاه ..
- بالهنا .. والشفاه من كل ما حدث ..
- الرحمة تجوز على الحى أكثر من الميت يا سعادة اليه ..
- يبدو هذا صحيحا .. وهل تريدن أن تعمل في هذا البيت بعد
كل ما حدث ..
- خير ما حدث .. لقد خرجت من السجن ودخلت هي
السجن ..
- ومات أخى ..
- إرادة ربنا .. ونعم بالله ..
- تعالى .. تعالى ..

وتقترب الخادمة أنعام منه .. ويقترب هو منها .. ويضمها
إلى صدره ..

وينفتح الباب الخارجى .. وتدخل جليلة ومعها شنتها ..
وراءها شيال .. اثنان .. ثلاثة ..

ولم يكدرى جليلة حتى يسحب أنعام بشدة ناحيته ويعاود
احتضانها وتقبيلها فى شفتها .. ورغم محاولاتها أن تفلت
منه .. ولكنها لا تستطيع ..

وتتوقف جليلة .. وتضع يديها فى خصرها .. ومن ورائها
الشيالون : من أجل هذه خرجت من السجن ..

ويظل محتضنا أنعام وظهرها فى مواجهة جليلة ويقول لها : بل
بسبب هذه خرجت من السجن ..

— زوجتك ..

— زوجتى .. أتمنى ذلك .. لم أفاتها فى ذلك .. هل فى
أستطاعتك أن تتوسطى لديها . نعيدنا نحن الاثنان ستين عاما !

وهنا تعتدل أنعام وتنظر لترى الراقصة جليلة لأول مرة ..

وتقترب منها جليلة : هل تزوجين سعادة اليه الذى قتل أخاه ..
تزوجينه يا شاطرة !

وتتنمر أنعام : انا خادمته ياست هانم .. وإذا رضى أن تكوني
أنت زوجته .. أصبح خادمك أنت أيضا ..

ويقترّب برهام من أنعام يضمها مرة أخرى ويقول لها : لا أنت
خادمة عندي ولا عندها .. أنت اخترت الحياة معي .. أنت
أعطيتني حريتي .. خليها .. خذيني .. فلن تأخذني كثيرا ..
سوف تأخذين بقايا .. بقاياها .. يا بنت خالي

ويشير إلى الراقصة جلييلة التي أخذتها خيبة الأمل والمفاجأة : ثم
يلتفت إلى أنعام التي تبدو في حالة من الذهول وعدم الفهم .. ولكن
على شيء من اليقين لأنها سوف تبقى في هذا البيت .. مع هذا الرجل
.. معه كزوجة .. كخادمة .. ولأول مرة تمارس شعورا جديدا
بأن أحدا قد أمتن لها بما فعلت .. ويلتفت إليها برهام ويقول : مع
الأسف .. هي تفهم – ويشير إلى جلييلة – وأنت لا تفهمين ..

ولكن أنعام تحاول أن تقول أي شيء يرفع رأسها أمام هذه
السيدة المتحدية والواقفة نصف عارية ورائها : بل فاهمة يا سيدي
.. لقد دعوت الله كثيرا .. فأستجاب ..

– الله قد أستجاب لك .. أطلبي منه أن يحميك ..

وردت أنعام بسرعة التلميذة الشاطرة : طلبت وأستجاب
لدعائي .. وأتى بك لتحميني ..

وضحك برهام : بل يحميك مني . . أنت لا تعرفين . .
وأستدار برهام . . وأخذها من ذراعها . . وأقفلت جليلة
الباب وراءها . .
وساد صمت . .
ولإنهار هو يبكي . . وانحنى عليه خادمته أو زوجته . . ولم تفلح
في أن توقفه عن البكاء . . وكل ما أستطاعت أن تقوله : سلامتك
يا سيدى . . ألف سلامة . . خدامتك يا سيدى . .

شعاع

(١)

إنسان على نيته . . سمعت هذه العبارة كثيراً تعليقا على تصرفاتي .
كل تصرفاتي . مع أن هذه التصرفات في بعض الأحيان لا تشمل
مثل هذه العبارة . فاذا طلبت رقم تليفون وجاءت ثمرة أخرى ،
فهل يمكن أن أوصف بأنني على نيائي . . وإذا رفعت يدي إلى
التاكسي ولم يقف لأنه لم يكن خاليا ، فهل أوصف بأنني على نيائي ؟
أدق ما يقال هو أنني إنسان ضعيف النظر . أو أن رغبتني في أن
أجد سيارة خالية قد جعلني لأراها بوضوح . فأنا صاحب رغبة .
وصاحب الرغبة أعمى حتى لو كان نظره ستة على ستة .

وقد اعتدت على هذه العبارة التي تنجي في نهاية أي شيء أعمله
أو أقوله . وأعتقد أنني صدقتها في النهاية ، ولذلك لأبذل مجهود في
عمل شيء ، وإنما أنا ألتى بنفسى على الخطأ لأن رأى الناس واحد :
أننى حسن النية ، ولذلك فأنا غلطان دائماً . .

فاذا انتقلت إلى العلاقات الاجتماعية حيث مجال الخطأ الحقيقى
وسوء التقدير لانهائية له ، لم يتغير موقف الأصدقاء منى . .

واعترف أنني بدأت أضيّق برأى الناس . . فلا أظن أنني ساذج
إلى هذه الدرجة ، وأن سذاجتى طبع ، وأن ذكائى هو نتيجة
مجهودى . . نتيجة مذاكرة لما يفعله الخبثاء من الناس . . لأظن
ذلك . . .

وفى كل مرة أجلس بمفردى ، أجدنى قاسيا على نفسى فأقول ،
ليه ياواد عملت كده . . ليه ياواد لم تكن أشجع من ذلك . . أن
الشجاعة هى التى تكسب فى النهاية . .

ولكن شجاعتى لم تكسب فى أية نهاية . .

فقد حدث فى العام الماضى كنا شلة نمشى على النيل بالقرب
من حديقة الأسماك فى الزمالك مرت بنا فتاة . . التفتنا إليها ، والتفتنا
وراءنا لنرى الوجه الآخر للقمر . . وعندما كانت الفتاة إلى جوارنا
قال أحدها : شيك . . وقال الآخر : متعالية . . وقلت :
ذكية جداً . .

وكان من نصيبى أنا أن أتلقى نظرتها . . نظرتها فيها امتنان
لحسن تقديرى . . والله يعلم أن نظرتها مازال تقول لى الكثير حتى
الآن . . تقول لى . . أو على الأصح أنا الذى اجعل نظرتها تقول
كل مايعجبني . . ومن الغريب أنني تصرف عن خبث . .
فالمرأة عندما تكون حميلة جدا ، فالصفة الوحيدة التى تثيرها

وتسعدنا أن تتغنى بعقلها ، أما جسمها فهو ما يعرفه كل الناس
ويتساقطون عليه . . وهذا واضح من نظرتها لي بعد ذلك . .
وصفقت للخبث الكامن في نفسي . . وكان هذا التصفيق سرا لم
يدر به أحد . .

وبعد أسبوع من هذا اللقاء العابر الذي أسعدني وجدها مع أحد.
أصدقائي الذي قال أنها : شيك . .

كيف حدث ذلك لأعرف . . لقد مزقتني هذه الصدمة . .

لا بد أن العيب في عقلي وفي مظهرى . . لا بد أنني مصدر هذه
العيوب . إذ كيف ينجح كل هؤلاء مع البنات وأنا لم أنجح مرة
واحدة . مع أنني أتكلم أحسن منهم وأقرأ أكثر منها . . وأجد
ما أقوله . . وأحيانا أستطيع أن أقول الكثير الذي يعجب الفتيات ..
بل انهن يطلبن مني أن أقول أكثر وأكثر . .

إذن لا بد أنني صديق لا بأس به ، ولكنى عاشق فاشل . أو أنني
قادر على تدفئة الجو وتهئية القلوب للحب . . أنا مدفأة فقط .
أو أنني قادر على تعكير الماء ، وغير قادر على الصيد . . أو بعبارة
أخرى : أنا مجرد « طعم » يضعونه في حبال الحديث وبعد ذلك هم
الذين يفوزون في النهاية . يجب أن أعرف ذلك . وأنا أعرف أن
هذا قدرى . وأننى أصلح لأشياء كثيرة ، ولكن لأصلح لأن أكون
محباً أو عاشقاً أو محبوباً أو معشوقاً . . ليست عندي هذه الموهبة ،
أو أن الله حرمنى من هذه الهبة . . .

(٢)

ويمكنك الآن أن تقول وأنت مطمئن : أننى مجنون . . .

فقد قررت أن أعزل الناس : تعبت من نفسى . . . وتعبت من الناس . وقررت أن تكون حياتى بلا نساء . .

كثيرون من الناس ليست فى حياتهم نساء ؟ الرهبان والجنود والعلماء والمجرمون والمجانين . . وأكثر المتزوجين ليست فى حياتهم نساء ، فهم يعيشون « إلى جوار » الزوجات ولا يعيشون « مع » الزوجات . .

وكل الأطفال يعيشون بلا نساء . . يعيشون مع أمهات وإخوات . ولكن لا يعرفون المرأة . إذن سأضرم نفسى إلى الأغلبية الساحقة من الناس . . سأكون على رأس جيش من « العزاب » باختيارهم ورغم أنوفهم . لقد حاولت النساء قبل ذلك أن تكون لهن حياة بلا رجال . . فهناك نساء « الامازون » أى اللاتى يأكلن لحوم البشر . .

والامازون كلمة يونانية معناها الذين لا يأكلون النباتات . . فهؤلاء النساء قررن أن يعشن بلا رجال . . ولكن فقط يلتقين بالرجال مرة واحدة ليحملن ويلدن بعد ذلك . أى مجرد علاقة

حيوانية فقط . فاذا كان المولود ذكر قتلته أمه . . وإذا كان أنثى احتفظت به . واحدة من هذه الأمازونات سافرت وراء الأسكندر ، وأقامت معه ثلاثة عشرة يوما وعادت وانجبت من الأسكندر توأمين ذكرين . . فقتلتهما وهى تبكى . .

وقررت أن أقتل بنات أفكارى الواحدة وراء الأخرى دون أن أبكى على حد . . قررت أن أكون رجلا فى عالم الرجال . .

. . واتجهت فورا إلى البحث عن أصدقاء . . أصدقاء بعض الوقت لاكل الوقت . فن الصعب أن يكون الانسان صديقا لأحد دون أن يشاركه همومه أى الحديث عن المرأة . إذن سأكون صديقا إلى حد ما . ووجدت الصديق جارا لى . . قابلته على السلم صدفة ووجدت على وجهه ترحيبا بتحتى . . وحيثه ومددت يدي . . وكأني مددت « سقالة » إلى شاطئ الأمان . ونزلت بكل ثقلى وألقيت بنفسى على كرمه وحيائه . . فى لحظة واحدة . . وكأني سمعت وقع جسمى على ضلوعه . . وندمت على أنني قدمت له نفسى وحياتى . .

وعرضت عليه صداقتى بسزعة . . ورأيت ارتياحه . . وندمت على ما فعلت . وهو معذور لأنه لا يعرف ما الذى دار فى رأسى . ولا ما الذى حدث لى . . وندمت أكثر عندما قررت فى اليوم التالى أن أوضح له ما حدث مع أن الذى حدث ليس أكثر من هذه

العبارة : أهلا وسهلا . أنا سعيد برويتك ، وأرجو من الله أن يجعل صداقتنا بداية عهد سعيد كريم بعيدا عن هوان وذل النساء . .

وكما ترى فليس للعبارة معنى واضح عنده . ولا بد أنه انزعج لهذه المفاجأة المبللة اليدين . . فقد غمرني العرق ، كل وجهي ويدي . وأخرجت منديلا مبللا ومسحت العرق بالعرق .

وفي اليوم التالي وقفت بعيدا عن باب شقته . ووضعت يدي على الجرس وسمعت أنينا . هامسا خجولا . وانفتح الباب وأطلت فتاة طويلة بيضاء ، لم أر ملامحها بوضوح . . وقبل أن أكمل . . سؤالي . . انقفل الباب . . ولأعرف ما الذي قلته ، وما الذي سمعته ولماذا أقفلت الباب في وجهي ، أقننته على لساني سدت الطريق أمام عيني وسدت نفسي . . وعدت إلى غرفتي فوق هذه الشقة بدورين ، هناك فوق السطوح . . ومن الغريب أنني دخلت في منطقة انعدام الوزن . . فلم أشعر بشيء . . لا بالسلم ولا بجسمي . . حتى أفكاري لم أعد قادرا على ترتيبها . . وألقيت بنفسي على سريري وتركت الباب مفتوحا . . وجاء ذلك الكلب المسكين أيقظني من أذني . . وصحوت من صحوتي الأليمة . فلم أكن أعرف - والله يعلم - أن لهذا « الصديق » أختا . . وأن ساكنا آخر في هذا البيت قد عاكسها منذ أسبوع . . وأن هذا الساكن قد اضطر إلى أن يترك البيت بعد معركة صارخة ، كل ذلك لأعرفه . .

فهل يمكن أن أوصف بأننى على نياتى . : لا أعرف . .
هل يمكن أن أوصف بأننى مجنون ؟ . . لا أعرف . .

(٣)

ولكن أصدقائى يؤكدون ذلك . .

ولكى أثبت حسن نيتى لسكان هذا البيت ، ولكل الشارع . .
قررت أن أنزل فى ساعة مبكرة وأعود فى ساعة متأخرة . . حتى
لا يرانى أحد . . وحتى لا أرى أحداً . . منتهى القسوة . . أنه حكم
أصدرته على نفسى ، وأنا أعلم أنه ظالم ، فأنا . . المتهم وأنا القاضى .
وأنا الذى أصدرت الحكم وأنا الذى نفذته . أنها قسوة أخرى أضيفها
إلى سلسلة الأحكام القاسية التى أصدرتها على نفسى . . يكفى
أننى لا أدخن ولا أشرب القهوة ولا الشاى ولا أذهب إلى السينما . .
أننى هكذا طردت نفسى من المجتمع الإنسانى وتسالت إلى عالم
الأشباح والموتى . . ولا يمكن أن يكون الفقر هو السبب : ولاموت
أبى ولاموت أمى . وإنما هو شعور بالندم العام العميق . الندم على
كل شئ . كأننى أنا الذى قتلت أمى وأبى . . كأننى «أوديب» الإغريقى
الذى قتل أباه وهو يعلم ، وقتل أمه وهو يعلم . ثم قرر أن يعاقب
نفسه على ذلك ، لا بالموت ، فالموت نهاية للعذاب والعقوبة ،
ولكن بالحياة والسير فى جنازة الجميع . .

ولأعرف أن كان صحيحا ما أحس به كل ليلة وأنا في طريقى إلى غرفتى .. أحسست مرة أن باب شقة هذا الصديق يفتح أثناء صعودى السلم . . ولاحظت أن نافذة مطلة على الشارع تنفتح وأعتقد أننى سمعت : آهة . أو سمعت كلمة : آسفه . . يا كتكوت ..

وكتكوت هو اسم الدلع . . أو سم التريقة الذى يطلقه أصدقائى وقد اعترضت على الاسم . ثم قبلته مادام ينطبق على حالى تماما . . فأتانا إذا قورنت بهؤلاء الصقور والغربان ، لأزيد عن كتكوت مسكين إلى جوار حائط ، يتوهم أن هذا الحائط بيته أو عائلته . .

وتوهمت — أيضا — ولأعرف هل هو وهم — أن أقداما رشيقة قد صعدت السلم فى إحدى الليالى ، وأقفلت باب غرفتى . . هذه الأوهام أسعدتنى — وربما كانت حقائق . . ولكنى لم أعد أثق فى حواسى . . أننى اتهمها أيضا بالغش . . . وبالتأمر على ماتبقى من عقلى . . ولماذا لاتأمر حواسى . . لماذا لا يحدث انقلاب فى داخلى . . تمرد . . عصيانى مدنى . . ممكن . . ولذلك لم أصدق أذنى ورفضت ما سمعت . . بل رفضت أن تكون لى أذنان . . لقد تعبت عيني ، ولا أريد أن أعتمد على أذنى كمصدر لعذاب جديد . .

وفى إحدى المرات كان الصوت الذى يقترب منى واضحا لاشك فيه . . بل إننى أكاد ألمس مصدره . . وفتحت عيني ، ووجدت باب شقتى مقفلا . وفتحت شقتى وهذا من حقى . .

ووجدت نفس الفتاة فعلا قريبة من باب الشقة . . ولم تكن وحدها
 كانت معها فتيات أخريات . . وضحك عندما رأينى ، وتمنيت
 لو أستطيع أن أقفل الباب في وجوهن . . ولكن قوة خفية في
 داخلي ضربت الباب وفتحته على آخره . . وهجمت الفتيات على
 الباب . . وفي ذهول وجدتهن يمسكن قطه صغيره كانت في شقتي ..
 وخرجت من تحت السرير عندما افتتح الباب . .

والباقي يمكنك أن تتخيله . .

وفجأة اختفى كل شيء . . وهذا . . وعادت الألوان الباهته
 إلى أرضية السطوح . . ولون الأفق . . وراحت الملابس المغسولة
 الممزقة تترنح مع الهواء الذي تصادف هبويه ليساعدني على اقفال
 باب وراء باب . . وليدفتني من جديد تحت أغطية كثيفة من اليأس
 صخرة جامدة من الإيمان العميق : بأن هذا هو نصيبي من الحياة .
 وأن هذا القرار لا رجوع فيه . . .

وأصبح من عادتي بعد ذلك أن أترك الباب مفتوحا للقطط
 والكلاب . . . فليس عندي ما أقفل عليه الباب . . لأشياء
 ولا أشخاص . . ولا حتى أنا . .

(٤)

ودفعني اليأس إلى السخرية . . . السخرية من نفسي ومن غيري
وقلت لنفسي وقد وضعت ساقا على ساق . وأرتديت ملابس
جديدة ، أخرجتها من دولابي . ومن علبة في جيبى أخرجت
سيجارا ، وليس سيجارة ، وعلبة كبريت جديدة . . فهذا أول
سيجار في حياتي وأول عود كبريت . وأول مرة أشعل لسبب آخر
غير الزكام . . . وقلت لنفسي : ولماذا لأبعث بخطاب إلى إحدى
المجلات وأقول فيه : شاب عمره ٢٧ سنة . جامعي . هادئ
الطبع يحب الأدب والموسيقى افقه واسع ويمسك مصباح الفيلسوف
الاغريقي « ديوجين » في عز الظهر ويبحث عن صديق .

ولم تعجبنى هذه الصيغة المليئة بالقزحة . . . وعدلت . عنها
وكتبت : شاب جامعي وظروفه الاجتماعية قاسية من الناحية
النفسية . كافر بالإنسان وتعب من هذا الكفر . . . ويريد صديقا
يرد إليه إيمانه بالقيم الإنسانية . . . ومزقت الورقة وكتبت : شاب
جامعي يهوى القراءة والرياضة ، ويجمع طوابع البريد ، ويريد
صديقا يرأسه من مصر أو من أى بلد عربي . . . عنوائى : ١٩٢
شارع عراقى الدور الرابع شقة ١١ شبرا - القاهرة . .

وحتى لأتردد لحظة واحدة في هذا القرار ، نزلت بسرعة ،

وألقيت بنظرة على باب شقة صاحبي . . ولاحظت أن الباب قدر
 وأن رائحة الطعام تنفجر من كل ثقب في الباب . ثم نظرت إلى
 الباب مرة أخرى ، وتشجعت . ومن الشارع نظرت إلى نافذة
 شقة صديقي . وأظن هذا الذي رأيته كان زوجا من الشياشب
 القديمة . . أنها إذن أسرة عادية . . بل دون العادية . . تؤمن
 بالخرافات والسحر والعمل . . وأني أرفض أن تكون لي صلة
 بهذه الأسرة . . أن الارتباط بها إهانة لكل ماقرأت وتعلمت
 وفكرت . . .

وفي تلك الليلة الماضية دخننت سيجارا آخر . . وذهبت إلى أبعد
 من ذلك : تعشيت في أحد المطاعم على النيل . . وعدت في ساعة
 مبكرة . وفي الطريق إلى البيت مررت على بائع السجائر واشتريت
 بطارية للراديو . . وحملت الراديو في يدي وهو يغني : دارت
 الأيام . . دارت الأيام . . وعدوية . . والطشت قال لي . . وتحت
 الشجر ياوهية . . وولد الهدى . .

وفي غرفتي فتحت الباب والنافذة والراديو ونمت ، أجمل وأسعد
 نومه . . حتى أصبح الصباح . .

(٥)

وصحوت . .

ومضت أيام . .

ونشرت المجلة رسالتى ضمن عشرات الرسائل الأخرى . .

ومضت أيام وأنا فى غاية السعادة مع أنى لم أفعل أى شىء .
ولكنى سعيد . لم أحقق أية خطوة إلى الأمام فى أى شىء . ولكنى
مبسوط . ولاحظت أنى بدأت أحل أسباب انبساطى . . وأدركت
أن هذا التحليل هو البداية المألوفة لشعورى بالغم والهم . فتوقفت
عن التحليل والتعليل واستسلمت لهذا الانبساط العبيط .

ولم اتلق خطابا واحدا من أحد . . من صديق . . أو من واحد
يريد الصداقة . . أو حتى يعاكسنى . . أو يشتمنى . . المهم أن
يصلنى خطاب شتمة واحد وفى نهاية الخطاب عنوانه . . هنا فقط
سوف يرى صاحب الخطاب أى وحش أنا . . أى ملاك يخفى
فى أحشائه ابلسا حقيقيا قاتلا بالفكرة وبالكلمة . لأول مرة
ألاحظ وجه شبه بيتى وبين أحد أقاربنى الذى اعتدى على فلاح فى
قريتنا . . ضربه بالسكين . ثم ذهب إلى البيت . . وأتى بمسدس
وأطلقه عليه فمات . . وسلم نفسه للبوليس . والذى أدهشنى فى هذه
القصة ليس أن قريبتى سلم نفسه للبوليس فكثير من المجرمين يحاول

أن يكون شجاعا شهما لآخر لحظة ولآخر مرة . وبعد ذلك ينهار كأي كلب . . ولكن الذي أدهشني أن الرجل الذي اعتدى عليه قريبي هذا لم يحاول أن يهرب ولا أن يستجير بأحد لانتقاذه . ولا أن يستعين بالسلاح . . وإنما ظل جالسا في مكانه إلى جوار التربة ، كما أجلس الآن إلى جوار الباب ، فلما جاء قريبي وقف له القتل . . ومات . . أن الشبه بيني وبين هذا القريب واضح جدا . . وخصوصا أننا نحن الاثنين لنا مظهر في غاية الهدوء . وكان قريبي هذا الذي حكم عليه بالاعدام قد بعث إلى الحياة فأمسكت ورقة وقلمًا وكتبت إلى رئيس تحرير مجلة « . . »

وبخط صغير جداً ورقيق جدا . . كتبت :

« قرأت الخطاب الذي بعث به أحد القراء يشكو من الوحدة ويبحث عن صديق . لقد خجلت من أن يكتب رجل مثل هذا الكلام . ومن الصدف الغريبة أنني فكرت أن أبعث لمجلتكم المحبوبة خطابا ، ولكن حماقة هذا الرجل لم تنسني عذابي ، بل ربما شجعنتني أكثر ، وأعطتني عذرا قويا . فهناك رجال — أيضا — يشكون من الوحدة . فما بالك بفتاة لها مأساة عائلية أصبحت وحيدة أبوها مات في حادث القطار الأخير . وأمها ماتت في طائرة الحجاز . ولا أجد لي صديقا في هذه الدنيا . وإن كنت في بعض الأحيان أرى أن صداقتي صعبه . . من الذي أو ألى تستطيع أن

تصادق رمزا باقيا لعدد من الموتى الأبرياء : أبى وأمى وأختى . .
 أعذرني ياسيدى أن قلبك الطيب هو الذى دفعنى إلى أن ألقى بنفسى
 عليك . . وأن أطلب من الله على يدك أن يهدينى إلى صراط
 مستقيم . ولا تؤاخذنى إذا لم أترك عنوانى . فانما أردت أن تختار لى
 أنت من ترى من صديقة أو صديق .

من المخلصة — شعاع . . .

لأحد قلبه طيب فى هذه الدنيا . . ومن المستحيل . . أن يمسك
 الإنسان قلما ويكون طيب القلب . . أعرفهم هؤلاء الكتاب .
 أنهم يأكلون بعضهم البعض كالوحوش باسم الموضوعية فى النقد :
 العقاد ومصطفى الرافعى . . سارتر والبير كائى . . جرير والفرزدق
 وينهشون لحوم الموتى ، باسم الصدق . . ويمزقون أثواب الفضيلة
 باسم البحث عن الحقيقة — ومن الغريب أن الحقيقة لا توجد إلا فى
 أحضان الأجسام العارية . كذب . . كلهم كذابون . . وسوف
 يبرم رئيس التحرير شواربه . . وإن لم تكن له شوارب فسوف
 يلع ريقه .. وينشر الخطاب طبعاً وبذلك يضمن رصيذا من هنا
 ومن هناك . . فالخطاب شبكة ينصبها وينتظر . . فلينتظر . وسوف
 أنتظر أنا أيضا . . فلينتظروا جميعا . . أن الشر قد صحا فى كل خلية
 من خلاياى . . فوداعا أيتها النية الحسنة . . وأيتها البراءة الخادعة ..
 وداعا أيتها المغفلون . أقصد الأصدقاء !

وأنا ابتداء من هذه اللحظة اسمي : الآنسة شعاع . . شعاع
مضى فاضح . . إنه شعاع موت !

(٦)

أيام أخرى تمضي . ولكنني أصبحت إنساناً آخر .
في داخلي إنسان آخر . . الخطوة قصيرة متزنة . رفعت عيني
عن نفسي . . رفعت رقابتي عن كل تصرفاتي . . وفي يدي خطاب
للسيد رئيس التحرير اطلب إليه أن يسلم الخطابات التي جاءت إلى
المجلة لحامل هذا الخطاب . والإمضاء : شعاع :

وذهبت إلى المجلة . وسألت عن رئيس التحرير . وأعطيته
الخطاب وفتحه وعلى وجهه شيء من اليأس ، والقرف والفشل .
لا بد أنه كان يتوقع أن تجيء شعاع نفسها للقائه ويبدو أنه عندما
أخرج خطابي من بين الدوسيهات التي أمامه ، أراد أن يقارن بين
خطي في الخطاب الأول ، وخطي في هذا الخطاب .

وطلب إلى أن أجلس . وجلست ودخل أحد السعاة وقال له :
هات الجوابات التي وردت للست شعاع .
أنا اسمي « الست شعاع » . . .

وعاد الساعي ومعه كيس كبير مليء بالخطابات . وسلمها لي .

وانشغل عني وقلت في نفسي : لا يهم . . أقوم أنا .
وقمت وفي يدي ضحاياي . .

سوف ترون يا كلاب . . لأنني فتاة فقط عرفتم الرحمة والرفقة
وسوف تبدأ خطاباتكم كلها بمثل هذه الكلمات : ويا عزيزني
ويا تحيية قلبي . . ويا نور عيني . . وحياة قلبي . . لأنني شعاع . .
ولو عرفتم أن اسمي هو شغبان رمضان ، لأريده أن أتخيل ما كان
من الممكن أن يعملوه ، فأنا أعرفه . . أعيشه . . لأنني شعاع ،
ولأن شعاع أرسلت جاراها يجمع خطاباتها يا سيادة رئيس التحرير .
المهم أنني أخذت الخطابات وتمنيت لو فتحتها على الرصيف . .
ولكني تماسكت . . وصعدت سلم البيت ثلاثا ثلاثا . . وتسللت
إلى شقتي . . وأقفلت الباب . . ونزعت ملابسني . . ولأأدرى لماذا
قررت أن أكون عاريا تماما . . لأعرف إن كان قريبي الذي
أشبهه كان يفعل ذلك . سمعت أنه فعل ذلك مرة عندما قرر أن يستلوا
على إحدى السفن في البحر الصغير بالمنصورة . . نزع ملابسه
كلها ودهن جسمه بالشحم . . تماما كالذين يعبرون المانش .
وبذلك يضمن أن أحدا لن يمسكه .

ونخلعت ملابسني كلها . . وتربعت على السرير . . ووجدت
الخطابات من كل الألوان والأحجام . . من بحري وقبلي . .
والخطوط أنيقة . دقيقة . فكل واحد منهم يريد أن يوقعني في

غرامه من أول سطر . ذئاب . كلاب . ثعالب . . كل هذا
لأننى شعاع ياجياع . .

أول واحد يقول : روح قلبي . . اسمعى أغنية شاديه الى
تقول : يا أسمرانى اللون . . وتذكيرنى يا شعاع . .

والثانى يقول : عمرك أطول من عمرى يا شعاع . . كنت أتمنى
أن أجد النصف الآخر لقلبي ولو حدثت وأنت نصفى الآخر . .

والثالث يقول : لو كنت أستطيع أن أجمع لك حرارة الأقصر
لاحرقت الخطاب . . بل لاحرقت الناس من الأقصر إلى القاهرة
حريقة تأكل الجميع ولا يبقى فى الدنيا كلها إلا أنا وأنت يا شعاع !

وخامس وسادس . . وسابع وعشرون بعد المائة . خطابات
والعة نار وهيام وشوق وحنان إلى انسانية مجهولة أرسلت خطابا إلى
مجلة . ونشره رئيس التحرير لأنه هو أيضا واحد من هؤلاء الذئاب .
الطريق من أوله لآخره يبدأ بالكلاب وينتهى بالذئاب . . طريق
أعرفه . . مشيت فيه ولم أكن أعرفه . . والآن عرفته دون أن
أمشى فيه . .

وإذا نظر ساعى البريد إلى اسم المرسل إليها ، ولم يفهم ماهى
الحكاية فهو لا يختلف كثيرا عن أى أحد فى هذه المجلة . . ولكنى
وحلى الذى أعرف السبب . .

والآن يبدأ البرنامج . .

سأكتب إلى كل هؤلاء الرجال والشبان . إليهم جميعا . وسوف
أعطيهم عنوان البيت . . الأنسة شعاع طرف الأستاذ شعبان
رمضان . . إلى آخره .

كل هؤلاء لم يهتموا كثيرا بما أصاب الفتاة . أنهم يريدونها
هي . أنهم يريدون أن يضحكوا وأن يتعانقوا على جثث أبويها . .
وكان الناس يفعلون ذلك من أقدم العصور يرقصون ويسكرون
في المقابر . على جثث الموتى . . أنهم يتحدثون الموت أو يسخرون
منه . . أو يريدون أن ينسوا أنهم أيضا ميتون غدا أو بعد غد . .
. . كل هؤلاء قد نسوا ما أصاب شعاع . . ولا يريدون شيئا
غيرها . . ليجعلوها تنسى . . أو لينسوا بها . . كلهم ممثلون
كذابون .

وسوف أعب بهم — أقصد سوف تلعبين بهم يا شعاع — العبي
كما يحلو لك . .

(٧)

الخطاب الأول : عزيزى رشوان حسن . كأنما أراد الله أن يعرضنى عن فقدان أخى . . فلك ملامحه تماما . حتى شاربك . . لو كنت أنت وهو ترددان على حلاق واحد ، لقلت أن الحلاق صاحب أسلوب واحد فى تصفيف الشعر . . ولكن أنت فى أسيوط ونحن فى القاهرة . . أن صورتك هى إحياء لذكرى أعز الناس . . مع دموع شعاع . .

الخطاب الثانى : أخى المحترم عبد الكريم بشندى . . إلى آخره . . ولا بد أن الأخ عبد الكريم هذا قد اندهش جدا كيف أننى لاحظت أن الكرافة التى فى رقبته من ذلك الطراز القديم . . وأننى لذلك قد اخترته دون سائر المئات من القراء لأكون صديقة له . . ولا بد أنه داخ تماما عندما قرأ هذه العبارة التى جاءت فى آخر خطاباتى له « أن خطابى هذا هو افتتاح للخط الدافئ بين قلوبنا البعيدين . . ولعل الله أراد أن يجعلهما قريبين . وكم أنت كريم يا عبد الكريم لأنك أرسلت لى أكثر من صورة لك . ولكن هناك صورة واحدة لم تستطع الكاميرا أن تلتقطها : ابتسامتك الحجول التى تساوى كل ما فى الدنيا من ذهب .

وكان وجهه كثيبا . وابتسامته تساوى وزنه ترابا وهبابا . .

الخطاب الثالث : أخى عبد الرحيم دكرورى . . كأن نافذة
 من الدفء قد انفتحت فى وجهى . وأحسست لأول مرة بالحنان
 فى هذه الدنيا الباردة . وإننى أقدر بساطتك . فأنت لم تشأ أن
 تستعير بدلة وكرافته وساعة وجزمة كما فعل غيرك ، وإنما أرسلت
 صورتك ، وهى فطرتك السليمة : الجلباب والطاقيّة والعصا . .
 بل إننى أكاد أرى سلسلة الساعة فوق الصديرى . . كم أنا سعيدة ..
 . . إذن هذا هو الشارب الذى يقف عليه الصقر . كنت أسمع عن
 ذلك ولم أراه فى حياتى . ولا تصورت أنه سيكون من نصيبى . .
 أخذك : شعاع !

آه لو كنت أراه وهو يقرأ هذا الخطاب !

والخطاب الرابع : أخى بهجت طلحان . . أنت الوحيد الذى
 شعرت أمامه بأننى واحدة من حريم السلطان . . كلك رجوله مخيفه .
 أن قوامك النحيل وعينيك الضيقتين وشفيتك الحادثتين كأنهما
 فصلتا بسكين ، وعنقك الطويل . . كلها تخيفنى . . إننى انتسب
 إلى ذلك الطراز من النساء الذى يطلب الأمان فى ظل رجل مخيف . .
 أنت تخيفنى . . ولكن - الحمد لله - عندما نظرت إلى أصابعك
 فى الصورة لاحظت أن الأصابع متباعدة . وهذا يدل على أنك
 رجل كريم . . والكريم يبذل كل شئ من أجل المرأة التى يحبها .

إذن . . فانت حارس شديد لكل ماعندك ، أو ما سيكون عندك
من كنوز . . أختك شعاع !

أنا أعرف أن هذا الأخ سيدوخ . .

الخطاب الخامس : أخى الظريف كامل الألفى الشهير بكوكو . .
صورتك حلوه قوى . وهذا يدهشى إذ كيف أن شابا جميلا مثلك
لا يجد فتاة . . أنت أمل كل فتاة . بل كل فتاة تتمنى عداوتك .
كراهيتك لها . لأن حبك لها مستحيل . . فالذين مثلك خلقهم الله
لكى يكونوا معشوقين لعاشقين . . وهذا يكفى . أدامك الله
لكل فتاة تحبك . وما أسعد الفتاة التى تحبها . . كم أتمنى أن أراها . .
لأعرف ماهى المواهب العظيمة التى وهبها الله لها ، وحرمنى
لقد حرمنى من كل شئ

كتبت عشرين . . أربعين . . مائة خطاب إلى هؤلاء الذين
أرسلوا خطابات طويلة وقصيرة وأرسلوا مئات الصور الملونة لهم . .
لقد أحدثت رواجاً تجارياً عند المصورين . . إنه رزقهم . أراد الله
أن يرزقهم من حماقة أناس آخرين . . وهذا هو الجانب الخير
الوحيد فى هذه الخطة الشريرة . .

(٨)

يبدو أن ينبوع السفالة في أعماق بدأ يتفجر . . فقد لاحظت
أننى أطلب من هؤلاء القراء بعض الهدايا بأساليب مختلفة . .
وقد ندمت على ذلك فى كل يوم يحى ساعى البريد ويسأل عن
الست « شعاع » وأقول له : مريضة . . ويسلمنى بوليصة بريدية .
ومن الضرورى أن أذهب لاستلام أقشة . . وبلح وحلاوة طحينية
وحمص السيد البدوى ، وملوحة ومش وجبنة قديمة وجبنة دمياطى
وشاى وبن . . ومن أعجب الأشياء التى تلقيتها «قفص دجاج» . .
هذا تسلمته باليد . . ولا أنذكر أننى طلبته من أحد . . وليس من
المعقول أن أطلب ذلك من أحد يسكن فى القاهرة . . ومعنى هذا
أننى بدأت أنسى ما أقوله فأنا أقول كثيراً أو أكذب كثيراً .
وذاكرتى تستطيع أن تحفظ ما أقوله شعاع لاناس فى الجنوب
والشمال وفى الشرقية والغربية . وقررت أن أسد عيون سكان البيت
الذين لاحظوا محى ساعى البريد كثيراً . وتزايد عدد الطرود
والهدايا . ولم يستريحوا إلى أن شعاع هذه مريضة . وأن هذه الهدايا
قد جاءت من أقارب لها ، لم يسمعوها عن مرضها إلا أخيراً . . وأمام
محاولاتهم لزيارة شعاع ، كنت أقول أنها فى أحد المستشفيات
المتواضعة وأنها لا تريد من أحد أن يزورها . . ولا بد أن الناس
قد اختاروا لها أمراضاً خبيثة تجعل اختفاءها ضرورياً . .

وتحيرت أمام إصرار القراء أن أبعث لهم بصورتي ، أقصد بصورة شعاع . وقررت أن أذهب إلى سور الأزيكية وأبحث عن مجلة قديمة أو كتاب قديم وأقطع منه صورة وأبعث بعشرات منها إلى كل واحد من هؤلاء وأعجبني الفكرة . . .

ولسبب غير واضح قررت أن أفتح الخطابات الجديدة التي وصلت من المجلة . . عشرات الخطابات . . أخذت من بينها واحدا . . المظروف أزرق معطر . الخط صغير . فتحت الخطاب الله أكبر . . أنها قارئة تناشدني الصداقة . وتروي هي أيضا قصة عذاب ووحدة . وتقول أنها غلبانة ووحيدة ومسكينة . وتحديثي عن أخ لها . وأن أخاها هذا قد عطف على حالي . وأن أخاها مشغول بأمري . وأنه يتمنى لو يستطيع أن يساعدني في أي شيء .

وهزئت رأسي : أن هذا الخطاب مصيدة أخرى . . لا بد أنه واحد آخر أكثر مني ذكاء . ولا بد أنه هو سيقني إلى اختيار صورة فتاة . أنه يريد أن يلعب بي . ولكنني عدلت عن هذه الفكرة . واسترحت إلى أن هذه الفتاة صادقة . ومعقول جدا أن تكون هناك فتاة تعطف على فتاة أخرى ، وأن يكون قد دار بينها وبين أخيها كلام بشأني . ممكن جدا . وأنها تعرض صداقتها . مقبولة صداقتك يا أختي ومقبولة صورتك أيضا . وهي الصورة التي سأبعث بنسخة منها إلى كل أصحاب الشوارب - في مصر من أولها لآخرها . وسوف

أضع على ظهر الصورة هذه الكلمات : مع قلب شعاع !

وكتبت خطابا إلى الأنسة صاحبة الصورة . واسمها : غادة . .
أقول لها أى كلام . . وفى نفس الوقت أطلب إليها أن تكون قريبة
منى . وألا تتخلى عني . . وقلت لها : أريد أن أكون معك صريحة
أكثر من أى انسان آخر . . وكان في نيتي أن أصارحها بالحقيقة
ولكني ترددت . واكتفيت بأن قلت لها : أرجوك لاتكفى عن
الكتابة فقد استرحت إليك من أول خطاب . . وأرجو ألا
تكون هذه هي راحتي الأخيرة وخطابك الأخير . .

وجاء منها خطاب أطول . . وكانت سعادتي أكبر . ولكن
الخطابات الأخرى تتوالى . وأنا في حيرة ما الذى افعله أننى اتفقت
الكثير على الجوابات وطوابع البريد . . وسهرت ساعات طويلة
أكتب لكل واحد على النحو الذى اعتاد عليه . . ويبدو أننى
خلطت بين الأسماء والصفات ، فقد جاءت خطابات مدعورة
لما حدث . . وفوجئت بأن واحدا منهم قال بكل صراحة : إنك
تخدعيتنى وغيرى . . لقد ضبطت خطابا لك أرسلته إلى واحد
في المنصورة تقولين له نفس الكلام يا كدابة يا نصابة . . إن قلبي
كان يعرف ذلك من البداية . . ولكنى كذبت نفسى . . والحمد لله
قد انكشفت على حقيقتك – لقد كنت بسيل أن أطلق زوجتى
أم أولادى من أجلك يابنت الـ . . (وغيره . . وغيره . .)

أصبح كل هـى الآن أن أنتظر خطابات « غادة » وأن أتفرغ
للكتابة إليها . وأن أحدثها أنا أيضا عن أخى . . تماما كما تحدثنى
عن أخيها . . ولاحظت أن غادة تبدى اهتماما شديدا بأخى هذا
وأسعدنى ذلك . وقد رويت لها قصة حياتى وعذابى . وكيف جئت
إلى القاهرة ولماذا ؟ وما الذى اشكو منه . . وكيف كفرت بالناس
وكيف أنى فى حاجة إلى من يردنى إلى الإيمان . . وكيف أن أخى
هذا قد خرج من جلده . . وأنه يريد أن يعود إلى صورته الطبيعية
إلى هـدوئه . . ورزاقته وإيمانه بنفسه وبالناس وبالله . .
ولا يوجد أخ طبعاً . . إنما أنا أتحدث عن نفسى . . أنا
شعبان رمضان .

(٩)

العفريت فى داخلى يستعجل النهاية .

قررت أن أنهى هذه المهزلة المرهقة نفسيا . وجسميا وماليا . .
والى عذبت ساجى البريد ودونخت سكان البيت الذين سمعهم
يقولون : إيه الحكاية . . البراجل ده جاسوس . : حكاية الثلاث
ورقات . . لن نسمح بالمسخرة . . عندنا بنات !

مع أنى لم أفعل أى شىء . ولا وضعت أذننى لاعلى باب ،
ولا على شباك . ولا مدت يدى لأحد . . وكل ما هناك أن الناس ليسوا
فاهمين لما يحدث : والناس لا يطبقون أن يروا ثم لا يعرفون . مجرد
حب استطلاع . . وإلا فالتهم لأول لها ولا آخر . . أولها

معروف هو أن أترك هذا البيت لو استطعت . وينتصر الناس
بإخراجي من البيت . مع أنه لم تكن هناك معركة ، وإنما الناس
يشعرون بتعب من هذا اللغز الثقيل .

وأمسكت القلم والورق . . وتركت الشرير الذي في داخلي
يكتب ويطلب إليهم جميعا الحضور . اخترت عشرين واحدا فقط . .
هذا يكفي . وحتى لا يكون حضورهم أليما ، وإنما لكي أمتع
نفسي بالضحك عليهم لآخر مرة ، اشترطت على كل واحد
منهم أن يرتدى ملابس خاصة . . ملابس تضحكني . . واشترطت
على بعضهم أن يترك لحيته أو شاربه . . أو يرتدى حذاء أبيض . .
أو طربوشا طويلا . . أنني أريد أن أرى عددا من الممثلين جاءوا
يبحثون عن مؤلف . . عن المؤلف الذي هو أنا . .

عزيزي حسن . . أخي حشمت . . الأخ الغالي متولى . . الأخ
الكريم عبد التواب . . أعز الناس كو كو . كل شيء سوف ينتهي
بعد سبعة أيام . . وما الذي سوف يحدث . . سأواجه الجميع
وأقول لهم الحقيقة . . والحقيقة الفاضحة لهم ولي أيضا . هم أرادوا
أن يعرفوا فتاة . وأنا أردت أن أعرف فتاة أيضا . . نحن كذابون
بنفس الدرجة . ونحن ذئاب جميعا . هذه هي الحقيقة . وكان من
الممكن أن يتلقى كل واحد هذه الصدمة على انفراد ويبلغها ويعود
إلى بيته فاشلا مفضوحا . . ولكن المجمع ، أو الذي سوف يكون

موجعا ، أن يتواجد هؤلاء الذئاب . . أن يدخلوا الواحد بعد الآخر . . وكلهم في دهشة . . وكلهم يتوهم أنه هو الوحيد . . إنه الحبيب الغالي . . هذه مشكلتهم . فليتعدبوا . . فليأكلوا بعضهم البعض بعيونهم ونظراتهم . لأنهم ضحايا أنفسهم . . ضحاياهم . . وفي لحظة واحدة أقول لهم الحقيقة . . وسوف يهربون من الكسوف . . لن يجرؤ واحد على أن يفتح فمه . إنه مفضوح . . فالذى سيفتح فمه سيكون المغفل الأكبر . . ولا أحد يريد أن يكون المغفل الأكبر ، وإنما واحد بين الكثيرين من المغفلين .

وبعد ذلك استريح . . أنها صدمة توقظني وتوقظهم . . ومن المؤكد أنني في حاجة إليها . . ولا أعرف أن كانوا هم أيضا في حاجة إلى صدمات نفسية . .

واسترحت أكثر عندما كتبت إلى « غادة » أقول لها أن أنخي قد دعا كل الأصدقاء من القراء إلى حفلة شاي وتعارف . . ولا أعرف بالضبط ما الذى جعلنى أكتب لها بكل هذه الصراحة والصدق . ربما كانت حاجتى الشديدة إلى أن أجدا انسانا افتح له نفسى ، وأعرضها على حقيقتها . . فهذه نقطة ضعف فى تكوينى النفسى . .

وكان موعد مجئ الأصدقاء . . الضحايا . . فى الساعة السابعة . . وقبل الساعة أحسست أن قلبى يدق ويوجعنى ، كأنه يعضنى من

داخلي . . كأنه العضو النادم الوحيد . . أو أنه الضمير يدفع بالدم
البارد إلى كل جسمي . . ومن النافذة رأيت أناسا يحومون حول
البيت .. أشكالهم غريبة .. رأيت الشوارب والطرايش . . والملابس
والجاككات . . وكل واحد يروح ويجي وينظر إلى البيت . .
وينظر في ساعته ويمسح العرق من جبهته . . ويمسح حذاه . .
ويشعل سيجارة . . وفي الساعة إلا خمس دقائق . . تراحوا على
الباب . . وتساءلوا إن كان هذا بيت الأخ شعبان رمضان . .

الاقلام تتخبط على السلام . . وصوت الدجاج في أيدي
بعضهم . . سكان البيت قد اعتادوا على الغموض والسكوت أيضا.
وتوالت الدقات على باب شقتي الصغيرة وفتحت الباب . . وسلمت
وقلت : الآنسة شعاع سوف تحضر حالا . . اتفضلوا . . اتفضلوا
اتفضلوا . . آسف . . أنتم تعرفون كل شيء . . الآنسة شعاع
قد أخبرتكم بكل شيء . .

وكانت الشقة ضيقة ، فاقترح بعضهم في ذهول ودهشة أن يقفوا
خارج الشقة إلى أن تحضر . .

أما أشكالهم وألوانهم فعجيبة فكأنهم خرجوا من استديوهات
والتي ديزني . . لم أكن اعتقد أن الانسان يبدو مضحكا عندما
تكون له رغبة شديدة في شيء . . عندما يكون كذابا . .
كلهم كذابون . . كلهم ممثلون . . فاشلون . . هذا إذن الانسان

أبو «ريالة» . . . هذا إذن الإنسان الذي يستحق العقاب . أقصى وأقصى العقاب وسوف أكون جلادا للجميع .

وقررت أن آتي بسكين من الداخل . . أن روح قريبي الذي أعلموه قد لبستني . . ولن استخدم السكين في شيء ، وإنما في الدفاع عن نفسي . . سأكون مثل تمثال العدالة . . امسك السكين في يد وفي اليد الأخرى امسك خطاباتهم .

وفجأة دخلت إلى غرفة النوم . . وأتيت بسكين ، وفي نفس الوقت تعالت الأصوات خارج الشقة . . وأقبلوا على فتاة : أهلا ست شعاع . . يا مرحب . . يا ألف نهار أبيض . . اللهم صلي على النبي . . أهلا ست شعاع . .

وخرجت من الغرفة . . ووجدت غادة . . أنهم ينادونها بشعاع . وهنا تذكرت أنني أرسلت صورتها إليهم جميعا . ولا بد أنها هي قد استتجت ذلك . . واقتربت مني . وأنا أكثر دهشة وذهولا منهم وأكثر خجلا .

وألقيت بالسكين إلى داخل الشقة ووراءها الخطابات وتمنيت أن ألقى بنفسى من السطوح . .

وفي هدوء طلبت غادة إلى الجميع أن يجلسوا . ولا أعرف بالضبط ما الذي قالته لهم . ولكنى سمعتها تقول : أنني أشكركم

فقد ملأتم وحدتى . ورددتى لى إيمانى بالناس وبالله . ولا أعرف كيف أشكركم . ولكنى مضطرة إلى أن ألبأ إلى أسلوب قديم . فقد كتبت أسماءكم جميعا هنا . . كل اسم على ورقة . وأطلب إلى واحد منكم أن يمد يده ويختار . والذي سيقع الاختيار عليه هو الانسان الذى اختاره الله لى . . لأعرف بالضبط ماذا حدث . . حاولت أن أفهم . أن أسألها . . أنى أيضا لأعرف إلا صورتها . وألا خطاباتنا . ولا أعرف كيف جاءت . . ولكنها مع ذلك حلوة . .

أن هذه النهاية مفاجئة لى أنا صاحب هذا العرض المسرحى .
واقرب واحد منهم . . ومد يده إلى الأوراق التى فى يدها ،
والتي وضعها فى منديل . . واختار ورقة وقرأ الاسم :

شعبان رمضان . .

وتساءلوا أين هو ؟

وأشارت بيدها ناحيتى . .

ثم عادت فى هدوء وطلبت اجراء القرعة مرة أخرى .

وتقدم واحد آخر ومد يده وأخرج ورقة . . وقرأ : شعبان
رمضان . . وقالت غادة وقد أحتت رأسها ! وهى تعتذر للجميع
واحدا واحدا : أنها إذن أرادة الله . . يا أصدقائى أن يحرمنى من

الشخص الذي تمنيته . . ونظرت إلى وجوههم باستسلام غريب . .
وأشارت بيدها كأنها ممثلة محترفة إلى العشرين صديقا أن يهبطوا
السلم . . نزلوا . .

وسقطت على الأرض خجلا . .
وتبددت عادة . . ولا أعرف أين ذهبت . وكانت أتعس
ليلة في حياتي .

(١٠)

ونحن جالسان على النيل سألت عادة : لابد أن أعرف .
وقالت : أنك منذ عشر دقائق وأنت تكرر هذا السؤال . تريد
أن تعرف . . ما الذي تريد أن تعرفه . . أنا قلت لك أنني عرفت
كل شيء عنك . . فعندما تلقيت منك أول خطاب ، جئت إلى هذه
المنطقة وعرفت البيت . وسألت . . انتهت كل معلوماتي . .
استرحت ؟

قلت لها : يعني أنت تعرفين كل شيء . .
— طبعا . عندما عرفت أنك سوف تدعو كل هؤلاء أدركت
أنها صورة جديدة من مذبحه الممالك في القلعة . . وأنهم من
الممكن أن يقتلوك ولو كنت رجلا لفعلت ذلك . . ولما رأوني . .

— آه . . آسف . . لقد عرفوك . . لاننى أرسلت إليك صورتك
آسف جدا . . .

— لا داعى للأسف . .

— والآن ؟

— ما رأيك أنت ؟

— رأيى هو رأيك . .

ونهنأنا واقتربنا . . أكثر وأكثر . . وكان هذا الاقتراب
نهاية للوحدة المريرة التى عشتها . . أما الباقى فمن السهل أن تخمنه . .
وهو بالضبط مالم يخطر على بالك . . أو على بال !

فقد همست فى أذنى بأنها قررت الزواج ، وكنت سعيد للغاية ..
أن يجىء الزواج بعد مؤامرة عليها . . وتذكرت أن النبىذ الرائع
الألوان هو من عنب فاسد !

(١١)

أما الرجل الذى تزوجته فأحد الذين جاءوا وكان يرتدى جلبابا
وطاقيه . لماذا ؟ قالت أنها تفضل الرجل الذى يتنكر فى ملابس
رجل . . على الرجل الذى يتنكر فى مأساة فتاة !

عند هذه النهاية من حقلك أن تقول عني أى شىء . . أسهل لك
أن تردد ما قاله أصدقائى !

(١)

الخواجه مخالي عربيًا

أقدم لك الشخصية الأولى في هذه الرواية . .

إنه يوناني اسمه غريب : ارنولف ارنيلوس . . ولصعوبة هذا الاسم نكتفى بأن نطلق عليه اسم ارنولف . . أو مخالي — مثلا . وهو انسان طيب جدا لا يشرب الخمر . يشرب اللبن فقط . ومسيحي متدين جدا . وله مثل عليا معروفة . هو نفسه يقدمها لك بعد لحظات من الجلوس إليه . .

وهو يتناول طعامه في أحد البارات الصغيرة وصاحبة البار قد عرفتة وجلست إليه . ولم تخف دهشتها في كل مرة تراه أو تطلب إليه أن يتحدث إليها . فصاحبة البار أسمها : السيدة بيلر . . وزوجها اسمه اوجست وهو يدعى أنه أحد أبطال العالم في ركوب الدراجات وإنه فاز في بطولة الدراجات حول سويسرا . وكاد يفوز في بطولة الدراجات حول فرنسا . وهو يرتدى دائما ملابس أبطال الدراجات وفي يوم سأل زوجته : ما رأيك في هذا اليوناني . إنه لا يشرب إلا اللبن .

وترد زوجته : وأنت في يوم من الأيام لم تكن تشرب إلا اللبن .

(١) مقتبسة

ويقول : هذا صحيح ولكن كان ذلك في فترة التدريب للبطولة .
ولكن هذا الرجل أيضا لا يقرب النساء مع أنه في الخامسة والأربعين .

ولكن مخالي هذا ثابت . كأنه قد استقر فوق شيء ثابت أيضا .
له مبادئ لا يتزحزح عنها . وله مثل عليا . . مرتبة الواحدة بعد
الأخرى . فهو يرى أن رئيس الدولة هو أعظم انسان في العالم
لأنه لا يدخن ولا يشرب الخمر . وهو ينظر إلى صورته الموضوعة
في البار ومن تحتها زجاجات الخمر ، على أنه ملك فوق عرش
يحترقه . وهو أرمل من ثلاثين سنة . ولم يتزوج ولم ينجب أولادا
وهذا واضح في كل ما تنشره الصحف عنه .

وتقول له صاحبة البار : يجب ألا تصدق ما تقوله الصحف .

ويقول لها مخالي : ولكن الفضيلة تبدو مشرقة على وجهه .
فالفضيلة تظهر على الوجه تماما كما تظهر على وجه كبير الأساقفة .
وهو الرجل الثاني في مثلي العليا . .

وترد عليه السيدة بيلر : ولكن هذا القسيس ضخم الجثة .
ولا يمكن أن تكون هذه الضخامة بسبب الفضيلة .

ويقول مخالي : كان من الممكن أن يكون أضخم لو لم يكن
فاضلا زاهدا في الحياة .

ولكن إيمان مخالي لا يتزعزع في هذه المثل العليا .

وعندما نظر إلى الحائط فوجد صورة لرجل منكوش الشعر والشارب قال لها : ما كان يجب أن تعلقى صورة هذا الشيوعي ثم أنه قد خرج من السجن أخيراً . أنه إنسان مغرور .

وردت عليه : ليس مغرورا . ولكنه محب للجماهير . . . عليك أن تتحفظ قليلا عندما تتحدث عن آرائك السياسية .

أما كيف جاء مخالي إلى هذا المطعم فقد حدث ذلك منذ شهر . لقد دخل إلى صاحبة المطعم وقدم لها نفسه وقال لها أنه رجل منظم ورجل متدين وأنه يحب رئيس الدولة ويرى أنه أعظم رجل في العالم . وأنه عندما رأى صورته على الحائط استراح إلى هذا البار وقرر أن يأكل فيه دائماً وهذه الصورة فوق رأسه . ووافقت صاحبة البار .

وطلب إليها أن تسمح له بوضع صورة كبير الاساقفة إلى جوار رئيس الدولة . . . ووافقت . . . وفي كل مرة يسألها الناس عن صاحب هذه الصورة فيكون ردها أنه أحد القديسين الذين يرعون راكبي الدراجات . ومعظم المترددين على البار من هواة ركوب الدراجات :

وبعد أسبوع رجع مخالي ومعه صورة ثالثة وطلب إليها أن تعلق

هذه الصورة . ولما سأله أجاب بأنها صورة صاحب المصنع الذي يعمل فيه . ولما قالت له : كيف تضع صورة مثل هذا الرجل . أن مصانعه تنتج المدافع الذرية .

وكان رد مخالي : هذا صحيح . ولكنك نسيت أولاً أنه صاحب المصنع الذي أعمل فيه . وثانياً أن مصانعه تنتج أدوات الولادة . وهي جميعاً منتجات انسانية . .

أما الرجل الثالث بين مثله العليا فهو المحامي ديتور والرابع هو الرسام باساب . والرجل الخامس هو السفير الأمريكي . والرجل السادس هو الأثرى الانجليزى ويمان . . . الخ .

وفي مرة جلست إليه السيدة بيلر وقالت له اسمع : يا مخالي . . أنت يجب أن تتزوج . . فأنت في حاجة إلى من يعنى بك . وقال لها : عنايتك تكفى .

فضحكت في سخرية لتقول : بل أنت في حاجة إلى عناية من نوع آخر .

فسألها : لم أفهم .

فقالت : عناية من نوع آخر . . في حاجة إلى الدفء إلى الحنان . . إلى عناية خاصة جداً .

واتفق مخالي معها على أن ينشر اعلانا في الصحف عن رغبته في الزواج . كأن يكون الإعلان هكذا : يوناني عمره ٤٥ سنة يريد الزواج من يونانية .

وكانت تقول : لاتقل لي أبدا أنك يوناني . . فلاحك غريبة عن اليونانيين .

وكان يقول لها : أننى اختلف كثيراً عن صورة الرجل الاغريقى كما تصوره الصحف والفنانون . . ولكن أجدادى جاءوا إلى سويسرا وعاشوا فيها من أربعة قرون . .

وبعد يومين تلقى ردا في خطاب أزرق أنيق صغير . وكان الخطاب من فتاة يونانية اسمها : كلوى . . هى أيضا يونانية وتوافق على الزواج منه لأنها تريد رجلا يونانيا يفهمها . .

وبعث إليها بخطاب وحدد لها المكان وقال لها أنه سيضع وردة حمراء في الجاكتة .

وذهب إلى البار . وقابلته السيدة صاحبة البار وسألته : تريد كوبا من اللبن . فقال على الفور : وحياتك أريد كوبا كبيراً

وسألته إن كان قد حدث له شئ * . فأجاب بأن شيئاً لم يحدث .

وجلس تحت الصور التي يحبها . وفي نفس المكان . وبدأ يمسح
 منظاره الغليظ عندما ظهرت فتاة جميلة جداً . طويلة بيضاء . ثوبها
 أبيض . ترتدى فراء ثميناً . واقتربت منه وقالت له : أنا كلوى . .
 وعندما نهض سقط كوب اللبن على المنضدة . وسقطت قطرات
 اللبن على منظاره الغليظ . ومد لها يدا مرتجفة وامتلأت الدنيا
 بينهما بالضباب ولم يرها بوضوح . ولكنها أخذت منظاره وجففته
 ثم أشارت إليه إن كان في الامكان أن تشرب أيضا كوبا من
 اللبن . .

وليس واضحا مادار بينهما من كلام . ولكنهما خرجا من البار
 متجاورين والمطر ينزل فوقهما بغزارة . وتلفتت السيدة بيلر
 إلى زوجها : أن هذه الفتاة أنيقة . . وملابسها تدل على أنها تعمل
 في الليل . . وأن أصدقاءها من أصحاب الملايين . .

وفي الطريق مالت كلوى على مخالي وقالت له : لم أكن أتصور
 أنك ظريف إلى هذه الدرجة . .

وتشاء الصدفة أن يرى في الطريق رئيس الدولة في سيارته
 الفخمة . وإذا برئيس الدولة يفتح زجاج سيارته ويحييه بوضوح . .
 واندesh مخالي وقال : لم أكن أتصور أن رئيس الدولة يهتم

في إلى هذه الدرجة . أنه انسان عظيم . إن تحيته كانت لي . وهذا واضح .

وعندما سار الإثنان بالقرب من قصر الرئاسة . ووقفا عند إشارة المرور ، انفتح زجاج سيارة أخرى وارتفعت يد صاحب المصنع يحيي مخالي شخصيا .

أنه لا يصدق ما يرى . الإثنان في يوم واحد . إثنان من مثله العليا . هذا كثير .

وعندما مر الاثنان بإحدى الحدائق . وجد انسانا ثالثا يقترب منه ويصافحه وفوجئ بأن الذي يصافحه هذا هو الرسام العظيم : ياساب . .

وبعد ذلك جاء السفير الأمريكي وحياه . .

إنه واحد من مثله العليا . .

حتى مدير الجامعة قابله في أحد الميادين وصافحه .

أن رأس مخالي يكاد يتحطم . لقد حدث هذا كله في يوم واحد . في ليلة واحدة . وربما في ساعة واحدة .

وصارحها مخالي بأنه يريد بعد أن يتم الزواج أن يفكرا جديا في السفر إلى اليونان . وأنه قد فكر في هذا الأمر ، فوجد أنه لم

يتمكن من هذه الرحلة إلا بعد عشرين عاما . ونحالي يعمل أميناً
مساعداً للمكتبة في مصانع المدافع الذرية . . وكلوى خطيبته
تعمل خادمة في بيت اثنين من المشتغلين بالآثار من الانجليز . وأنها
يتيمة . وأن هذه الأسرة الانجليزية قد التقطتها وربتها . واعترف
لها نحالي بأنه أيضا يتيم . وأن الحظ قد جمع الإثنين معا .

وعندما عاد إلى عمله في الصباح فوجئ بشئ غريب . فوجئ
بأن أمين المكتبة يريد مقابلته شخصيا . وهذا شئ نادر
الحدوث . وقابله أمين المكتبة وقال له : أن مدير الفرع يريد
أن يراه . وأن هذا نادر الحديث . وعندما ذهب لمقابلة مدير الفرع
صارحه هذا المدير بأن : هذا أسعد يوم في حياتي . فالسيد المدير
العام يريد أن يقابلك فورا .

وذهب معه إلى الأدوار العليا من إدارة المصنع . ورأى الأبواب
الزجاجية والسجاجيد الفاخرة والمصاييح الحمراء والخضراء
ورأى فتيات السكرتارية الرشيقات الجميلات . والابتسامات
جاهزة على كل وجه . والإنحناءات بنحية يابانية هنا وهناك .

وانفتحت له الأبواب وأقفلت وراءه الأبواب ، ولاحظ
أن الكلام همس . والسلام لمس . حتى السعال مكتوم . واستقبله
المدير العام عند الباب وقال له : هذا أسعد يوم في حياتي . أننا

جميعا قد راقبناك من وقت طويل . أعمالك الباهرة ونشاطك الواضح
فأنت المسئول عن زيادة المبيعات في أمريكا .

وكان رد مخالي الذاهل : ولكني أعمل في تنشيط المبيعات في
الريف فقط . .

وكان رد المدير العام : هذا صحيح . ولكن لابد أن الذين عملوا
في تنشيط المبيعات في أمريكا قد ترسموا خطاك . على كل حال
لاداعى للتواضع . وأنا يسعدني أن أذهب معك إلى باب السيد
صاحب المصنع فهو في انتظارك منذ أكثر من ١٢ دقيقة . . تصور .
لقد تكرم وتفضل وحدثني مباشرة من غير مدير مكتبة
ولاسكرتير المدير . . هو شخصيا . تصور . وهذا لم يحدث في
تاريخ هذه الشركة منذ انشائها . .

وفي ذهول واضح اتجه المدير العام مع مخالي إلى الدور العلوي
من هذه المصانع . . الدور الذي يعمل فيه صاحب المصانع . .
وتكررت نفس المناظر . . السكرتيرات الحسنات والأزوار
والمصاييح الحمراء والخضراء . . وأصوات غير مألوفة . . وجوه
كأنها لأجناس بشرية غير معروفة . . ثم مكتب صاحب المصنع
وعندما انفتح الباب اختفى المدير العام، لأنه لا يستطيع أن يدخل
صاحب الشركة ، فالتعليقات أن يقف عند الباب . . ودخل مخالي..

ورأى صاحب المصانع . . أنه أحد مثله العليا في الحياة العصامية
والنشأة التاريخية العريقة .

وامتدت يد صاحب المصانع ليقول لمخالي : اسمع يا ساكيريس..

فرد مخالي في نخجل وخرج : اسمي مخالي . .

ومدير المصانع يقول بسرعة : لا يهم أن يكون اسمك أى شئ ..
اسمع . . أنا معجب بجهودك ! العظيمة في ترويج صناعة المدافع ..

ويرد مخالي . . إننى اشتغل ياسيدى في المكتبة . . مساعداً لأمين
المكتبة . .

ويعود صاحب المصانع يقول له : أعرف ذلك يا انكسو غراس.
أعرف ذلك . والجميع معجبون بك . . ولذلك قررت ترقية ترقية
أنت من الآن مدير لفرع الأدوات الطبية . .

ويرد مخالي : ولكنى ياسيدى لأفهم . .

ويقول صاحب المصانع وهو يتجول في مكتبه الكبير الطويل
العريض الفاخر : ومن الذى يفهم . أن هؤلاء المديرين لا يفهمون
شيئاً . . على كل حال أنت الآن مدير عام . . من هذه اللحظة
مدير عام . . تعال وأنظر لترى النهر والمدينة كلها من هذه
النافذة . . وهذه الكاتدرائية . . وهنا قصر الرئاسة . . وهناك
وزارة الاقتصاد . . المنظر جميل . .

وفي دوحه غربية عميقة يقول مخالى : منظر جميل وشئ غريب ..
ويقدم صاحب المصانع لمخالى سيجارة فيقول له أنه لا يدخن . .
ويقدم له كأسا من الشمبانيا فيعتذر بأنه لا يشرب .

وتنتهى المقابلة ويعلن صاحب المصانع لمخالى أنه يجب أن يذهب
إلى شباك الخزانة قبل أن يعود إلى بيته فهناك شيك لمرتب سنة مقدما.

ويخرج مخالى . . وتتكرر الإنحناءات والهمسات والتحيات
والمصاعد التي تنفتح وتنقل . ومن باب إلى باب ومن دور إلى
دور الخزانة ويقبض الشيك . ويعود مخالى لأحلامه بأن يسافر
مع خطيبته إلى اليونان في الدرجة الأولى على ظهر الباخرة جوليا .

ويمضى شهر العسل هناك . .

وتدور في أذنه كلمات صاحب المصانع : أنت رجل من
الشعب . وأنا رفعتك من تحت إلى فوق تحقيقا للاشتراكية الإيجابية .

ونزل مخالى وركب التاكسي لأول مرة في حياته . وبدأ عليه
الوجوم والشحوب . أنه مرهق مكدود ومهدود . مفكك دائخ
تائه . لا يعرف كيف ارتفع فجأة من أعماق الأرض إلى السماء :
يجد العروسة ويقابل كل مثله العليا في يوم واحد ويتحول من
مساعد أمين مكتبة مجهولة إلى مدير عام لقسم المدافع النارية
وأدوات الولادة .

ويقف التاكسى أمام البار . .

وتراه صاحبة البار وتسأله عن الذى أصابه . . هل هو أمضى
ليلة حمراء مع فتاة جميلة . . يجوز . . ولكنه لا يشرب ولا يعرف
الليل بعد التاسعة مساء . ولا يعرف النساء . ثم إنه ليس مريضاً .
ولامصاباً . ولا مفصولاً من عمله . إنه قد ارتفع فجأة إلى طبقات
الجو العليا فى ملابس غير مكيفة بالهواء والضغط . كيف ؟
إنه لا يفهم ؟

وتسأله صاحبة البار : ولكن لماذا جعلك مديراً عاماً ؟

– تطبيقاً للاشتراكية الإيجابية .

– وماذا فعلت مع الفتاة اليونانية ؟

– خطبتها . .

– معقول جداً . وماذا تعمل هى ؟

– خادمة .

– وتملك هذا الفراء الثمين ؟

– إنها مدبرة جداً .

وفى الطرقات ينحني الناس لتحيته . . ويصافحونه بحرارة .
وهو فى ذهول ويصافح ويرد التحية .

ويتجه إلى أحد مكاتب السياحة . ويراہ مندوب السياحة فيقول
له : لا توجد عندنا أماكن . . الباخرة قد امتلأت .

وبعد أن يرجع مخالى إلى غرفته فوق السطوح يلتفت مندوب
السياحة إلى زبون جديد ويقول له : هل تتصور أن رجلا يونانيا
جاء إلى هنا يحجز تذكريتين في الدرجة الأولى إلى اليونان . . ملابسه
قدرة وشكله حقير . عنده فلوس . . وهذا هو أحد عيوب
الرأسمالية . . فالذين عندهم الفلوس بهائم لا يعرفون الذوق في
الكلام أو في اللبس . .

وركب التاكسي مرة أخرى . وطلب إلى السائق أن يذهب إلى
أحسن ترزى وأحسن حلاق وأحسن محل أحذية .

وذهب إلى هذه الأماكن واشترى أشيك الملابس . وعاد
إلى شركة السياحة مرة أخرى . ووجد نفس الموظف . ولكن
عندما رآه بمظهره الأنيق وقبعته العالية ولهجته الجادة وأنه مدير
عام « قسم المدافع الذرية وأدوات الولادة » حجز له تذكريتين
في الكابينة المجاورة لصوفيا لورين والأميرة مرجريت .

وعندما عاد إلى بيته وجد أخاه وأولاده . . لقد حاولوا سرقة
إحدى السفارات فلم يفلحوا ولذلك هم في حاجة سريعة إلى المال . .
وأعطاهم .

أما كبير الأساقفة فقد اتصل بمخالى وحدد له موعدا . وطلب
إليه أن يكون مستشارا لمجلس الكنائس . وقال له : لقد لاحظت

انتظامك في الصلاة وحبك للخير . واضربك عن التدخين والحمور
والترامك للفضيلة . ولايهمني أبدا كيف أصبحت مديرا عاما .
فالناس في غمضة عين يصبحون مديرين هكذا . . وأنت الآن
تستطيع أن تخدم الكنيسة والمسيحية أكثر من أى وقت مضى . .
وقبل أن ينصرف مخالى ينبه كبير الأساقفة إلى أن الجلسة القادمة
لمجلس الكنائس سوف تكون في اسراليا .

ويقول مخالى لكبير الأساقفة : إننى شديد التعاسة كأننى فقدت
كل شىء في الدنيا ، مع أننى كسبت الكثير جدا . ولكننى حزين ..
أشبه بالنبي أيوب الذى فقد الزوجة والبنات والصحة في يوم واحد .
وأنا وجدت الزوجة وقابلت كل مثلى العليا وأصبحت مديرا عاما
ومستشارا لمجلس الكنائس كل هذا في يوم واحد . . إننى حزين .

وقال كبير الأساقفة : الحزن ياولدى هو طبيعة الحياة . فأنت
الآن إنسان طبعى . وأنتك ولاشك تستحق هذه البركات التى سحلت
عليك . . فاشكر الله ياولدى . .

وفى هذه الليلة قرر أن ينقل خطيبته من عملها ، ويقيا معا في
فندق هيلتون . . واحتجز غرفتين . . واحدة في الدور الثالث لها .
واحدة في الدور السادس له . حتى لايجرجها . . فهو الآن مستشار
مجلس الكنائس . .

وأحس بصعوبة جديدة فملا بسه الأنيقة جداً أصبحت مانعا له
من أن يذهب إلى كثير من الأماكن التي كان يتردد عليها . . مثل
البار القديم . . أن ملا بسه ومظهره ومنصبه لا تتماشى كلها مع
هذا البار المتواضع جداً .

وفي مدخل الفندق لاحظ معرضا فخما للوحات فنية
كثيرة . . واقرب منها . . ونظر إلى إحدى اللوحات . . وقرأ
عنوان الرسام وخرج من الفندق بسرعة . وركب التاكسي وطلب
إليه أن يذهب إلى عنوان الرسام . . وفي « حوارى » كثيرة انطلق
التاكسي ووقف أمام باب ضيق . وصعد الدرج المظلم وارتطم
بالسقف . ثم وقف أمام باب صغير وتسلسل إلى داخله . ووقف
وجهها لوجه أمام الرسام . وسأله : من أنت ؟

فقال له مخالى : لقد سلمت على اليوم صباحا . . أنا مخالى .

— وماذا تريد ؟

— أنك رسمت خطيبي عارية . . فأنا أريد هذه اللوحة
بأى ثمن .

— تقصد لوحة فينوس ؟

— نعم . .

— وماذا يضايقك من هذا ؟

— إنها خطيبتى .

— أنها أجمل خلق الله . . لها أجمل صدر — وأروع ساقين .
وأنعم عتق وأجمل وجه . . أن زواجك افساد لعمل إلهى عظيم . .

— وأنت تعرفها ؟

— لقد عملت موديلاً عندى فترة طويلة . . أنها نعمة من نعم الله
لن تدركها إلا بعد أن تتزوجها . . وبعد ذلك ستشوه أنت هذا
الجمال عندما تحمل وتلد وترضع أطفالها . . إننى أريد أن أرسملك
عارياً . . أنخلع ملابسك . . أنت صورة لإله الحرب عند
اليونان . . .

— أنا يونانى .

— إذن إله الحرب . . انخلع ملابسك . .

— الدنيا برد . .

— سأقرب لك المدفأة . . انخلع . .

— القميص . . ؟

— القميص والبنطلون . . انخلع كل ملابسك . . هذا الشعر
الذى فى صدرك .

وبدا يخلع ملابسه . .

ثم عاد الرسام يقول : أرجوك أن تقف كالملاكين . . اجعل
زاوية الانحناء ستين درجة . . هكذا . . ثم اركع على ركبتيك . .
أنت الآن إله الحرب بعد المعركة .

وراح الرسام يقترب منه ويبتعد . . وبعد أن فرغ من اللوحة
أعطاه تمثالا من السلك قد صنعه لخطيبته كلوى . . وقال له : هذا
التمثال ضعه إلى جوار سريرها لتتذكر يوما ما أنها كانت جميلة . .
وأنت أنت المستول عن ضياع هذه التحفة الإلهية . . انزل في
ستين داهية .

واتجه بالتاكسي إلى حيث المحامي دتور وهو أحد مثله العليا . .
فقد اتصل به وأخبره أنه سوف ينتظره لأمر هام . . وذهب للقاء
المحامي الكبير وقابله المحامي ماذا يديه : سيدى مخالى المدير العام
أننى فى انتظارك . . تفضل ياسيدى وقع بامضائك على هذا العقد .

وسأله مخالى : أى عقد ؟

وقال المحامي : هذا العقد . . أن أصحاب هذا البيت يتنازلون
لك عنه وهو هدية منهم بمناسبة زواجك السعيد . . وقع هنا . .

وتساءل مخالى : ومن هم أصحاب البيت ؟

وقال المحامي : إنه عالم الآثار الانجليزى وزوجته . وهذا
البيت هدية لك بمناسبة الزواج . .

ووقع مخالى على عقد البيع . .

وانصرف المحامى . . وترك مخالى فى القصر الهائل . . الأبواب والنوافذ والسجاجيد والمصابيح واللوحات على الحائط . . ولافتة على غرفة مكتوب عليها : مكتب مخالى . . وغرفة أخرى مكتوب عليها : غرفة نوم مخالى . . وغرفة نوم كلوى . .

وتسلل مخالى إلى غرفة نوم كلوى فوجدتها ممددة فى الفراش . . ولم يكذبها حتى قال لها : أنت تنامين فى سرير زوجة العالم الأثرى . . أنت مرهقة .

وكانت شبه عارية وقد وضعت المخدات على صدرها . . وعانقت المخدات واقتربت من مخالى . ولكنه لم يجرؤ على أن ينظر إلى جمالها بوضوح . .

وقبل أن ينصرف المحامى طلب إليه مخالى : أن يعد الأوراق الخاصة بزواجه .

وقال المحامى : أعدتها . .

— ومن الذى طلب إليك ذلك ؟

— خطيبتك .

— إننى أسعد إنسان فى العالم .

— ومن سيكون الشهود ؟

- هي اختارت عددا قليلا جداً من الناس . .
- والضيوف ؟
- لن يتجاوزوا المائتين .
- ومن الشهود . . ؟
- السفير الأمريكي ورئيس الدولة وربما الرسام الكبير .
- ولكنهم لا يعرفون زوجتي . .
- وهنا ابتسم المحامي وحنى رأسه : أظن أنهم جميعا يعرفونها . .
- وعاد نحالي إلى غرفة نوم كلوى وسألها : ولكن لماذا أعطونا هذا القصر .
- يظهر أنها من التقاليد البريطانية أن يحولوا خادمة البيت إلى سيده . . ثم إن لديهم قصورا كثيرة هناك .
- هل أخبرت هؤلاء الانجليز عن زواجنا ؟
- طبعا . . ولهذا أهدونا هذا القصر . .
- هل تعلمين أنني أصبحت مديرا عاما .
- أعرف .
- وإنني أصبحت مستشار مجلس الكنائس .
- أعرف .

- وأننى سوف أسافر إلى استراليا فى الصيف القادم .
— أعرف .
— ومن الذى أخبرك بهذا كله . .
— المدينة كلها تتحدث عن صعودك إلى أرقى الدرجات . .
— إننى لم أعد أشعر بنفسى : . أننى أصبحت إنسانا آخر . .
لأدرى من أنا . وأنا تعيس . . وقد قال لى كبير الأساقفة أن التعاسة
شئ طبيعى وأنها فى طبيعة الانسان . وأن الحظ يلعب بنا يلعب فى
كموظف صغير . ويلعب بك كخادمة صغيرة .
— لا تقلق يا عزيزى . . لقد انتظرتك طول الوقت . والآن
أنت رشيق . . أنت أنيق . . اخلع ملابسك وتعال إلى جوارى .
واقتربت منه كلوى والعطر يفوح منها والدفء . . وأشياء
كثيرة لا يعرفها غالى . ولما اقتربت منه قال لها : ولكننى لم أشرح
لك مبادئ الكنيسة .
وترك خطيبته تتمدد فى سريرها ، وذهب إلى خارج الغرفة وتمدد
فى أحد المقاعد حتى الصباح .
وفى ساعة مبكرة صحا على صوت قريب منه . ووجد فتاة جميلة
وسألها : من أنت ؟
قالت : أنا صوفى .

- وماذا تفعلين هنا ؟
- خادمة . . وأرجوك أن تنهض قبل أن يصبح أصحاب البيت .
- أنا صاحب البيت . . ومنذ متى تعملين هنا ؟
- منذ ستة شهور . . لقد اختارتني سيدتى كلوى .
- من ستة شهور . .
- وأحس أن هذه الفتاة قد أخطأت في فهم الحقيقة . فلا بد أن أصحاب البيت من الانجليز هم الذين اختاروها وقد ظنت بسداجة أن كلوى هى التى عينها .
- ثم عاد يقول لها : ومتى تصبحو سيدتك .
- فى التاسعة . .
- إذن أستطيع أن أراها .
- إنها تصبحو فى التاسعة وسوف تلتقى بالحيطة فى التاسعة والنصف
- إذن أراها فى هذا الوقت .
- بل هذا موعدها مع التدليك .
- إذن بعد ذلك .
- ربما .
- وتقدم رجل عجوز فى السبعين من عمره وانحنى وسأله مخالى :
- من أنت ؟

— السفرجى .

— منذ كم سنة تعمل هنا .

— منذ ١٠ سنوات .

— ومن الذى استأجرك هنا .

— إنها الآنسة كلوى .

وارتبك مخالى وأدرك أن هذا العجوز هو أيضا مخرف . فهو لا يعرف أن هؤلاء الانجليز عندما عثروا على كلوى اليتيمة قد عاملوها على أنها ابنتهم . .

واقترب السفرجى من مخالى وقال له : ياسيدى فى العاشرة والنصف سوف يجي' مدير الجامعة ليمنحك الدكتوراه الفخرية لما بذلته من جهود عظيمة فى ترويج وتطوير أدوات الولادة . وفى الحادية عشرة يصل السفير الأمريكى يحمل خطابا شخصيا من الرئيس الأمريكى يهنئك بزواجك .

وفى المساء ذهب مخالى ومعه جروسه إلى الكنيسة وهناك اجتمع أرقى ما فى المجتمع . . وكل المثل العليا وزيادة . وازدحم الناس فى الشوارع يتفرجون على العروسين وقد نزلا من سيارتهما الحمراء الفاخرة .

وفى الكنيسة تقدم كبير الأساقفة يلقي كلمة يبارك فيها هذا

الزواج ويتمنى للآثنين السعادة . . ويذكر أيضا الأعمال الجليلة
التي سوف يقوم بها مخالي والتي ينتظرها المسيحيون على يديه . .

وعندما سأله كبير الأساقفة إن كان يقبل عروسه كلوى زوجة
له . . صرخ مخالي وقال : لا .. إننى لا أتزوج عشيقة كل الموجودين
فى الكنيسة . . عشيقة . . غانية . .

وانطلق إلى الشارع والناس يصرخون ويضحكون . . وتحت
ستار الأمطار الشديدة أخذ مخالي يتوارى فى البيوت ووراء
العربات . . واتجه إلى الهر وعلى الكبارى واحدا بعد واحد . .
والشحاذون يقولون له : ألق بنفسك . . فالحياة لاتساوى . .
سوف تكون ثالث واحد اليوم . .

وفى ساعة متأخرة من الليل عاد إلى بيته وقد تغطت ملابسه
بالوحل والمطر . وذهب إلى غرفته وراح يمزق كل ما فى البيت ..
اللوحات والملابس . . والبدل والفساتين ودخل إلى الغرفة المكتوب
عليها « مكتب مخالي » ووقف على المنضدة . وقرر أن يشق نفسه .
وفى هذه اللحظة انفتح الباب ودخل الزعيم الشيوعى ومعه شخص
آخر . والتفت مخالي إليه : وأنت أيضا كنت عشيق زوجتى .

فرد عليه : نعم . . ولهذا جئت أقدم لك هذه الهدية بمناسبة

زواجك السعيد . . ثم أقدم لك هذا الصديق . . إنه السكرتير
الخاص لصاحب المصانع التي تعمل فيها . إنه يعمل معنا . .
وسأله مخالي : ماهذه ؟

فقال الزعيم الشيوعي : إنها العدالة .
وسأله مخالي : إنها قبيلة .

فقال الزعيم : نعم قبيلة . . وهذه فرصتك أن تنتقم من كل
الناس . . اذهب بها إلى بيت رئيس الدولة واضربها في غرفة
نومه . . وقد رسمنا لك كل شيء . وعلى حائط القصر يوجد السلم . .
ونحن نعرف الطريق إلى غرفة نومه فقد درسناها جيدا . هيا بنا
لاتضيع الوقت . .

وفكر مخالي . . وتردد . . ثم عاد فقرر أنها فرصة لينتقم .
وركبوا السيارة جميعا إلى قصر الرئاسة . .

وتسلل مخالي إلى داخل القصر . . وراح يبحث عن غرفة
رئيس الدولة فلم يجده . وأخيرا صعد إلى الدور العلوي وأضيئت
الأنوار فجأة فوجد نفسه أمامه وجهها لوجه . وقال له الرئيس :
رأيتك وأنت تتسلق السلم . . أنى كثيرا ما فعلت مثلك . وأنا أيضا
مثلك أو من بأن هؤلاء الحراس مغفلون . . تعال يا صديقي العزيز .
تعال . ماذا أقدم لك من شراب . . أنت لاتشرب ولكنها فرصة .

وقدم له كأسا من الشمبانيا . . ثم شرائح من اللحم . وقال له :
زوجتك خيلة . ولا بد أنك إنسان سيّد . .

وسأله مخالي : إن كان قد عرفها . .

فأجابه : طبعاً . جالها يستحيل أن يكون ملكاً لشخص واحد .
ولكنك استطعت أن تجعله لك . . لقد كان موقفك اليوم صعباً .
إنني أقدر موقفك . لقد حضرنا جميعاً لوداع إنسان عزيز علينا . .
وكان حفلاً ألياً علينا جميعاً . .

وشعر مخالي بالدفء . .

وجاء الخادم الخاص للرئيس ونزع ملابس مخالي وراح ينفضها
وكان مخالي قد وضع القبلة اليدوية في جيبه وخشى أن ينكشف أمره
ومع الدفء والشمبانيا والترحيب به والحديث إليه هدأ كل
شيء في نفسه . وبعد ذلك رافقه رئيس الدولة إلى الباب الخارجي .
وودعه . .

وعاد مخالي إلى بيته فوجد أخاه نائماً إلى جوار سيدة عارية .
وفوجئ الأخ بمخالي . فصرخ في وجهه : يجب أن تستأذن إذا
دخلت غرفة النوم ، حتى لو كانت غرفتك . .

وجمع مخالي حوائجه وسافر إلى الميناء ليستقل الباخرة إلى اليونان
ورست الباخرة في اليونان . وهناك وجد الأسرة البريطانية

المشتغلة في البحث عن الآثار الاغريقية القديمة . وقرر أن يشتغل بالآثار . . أن يشتغل بأي شيء في بلاده وألا يعود إلى حيث كانت فضيحتة ومأساته وهوانه .

وفي يوم كان يتمشى على الشاطئ . . فوجد فتاة مدفونة في الرمال . . واقترب منها : لقد كانت خطيبته كلوى . .

فقال لها : ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

— وهل نسيت أنك حجزت لي تذكرة السفر إلى اليونان .

— نسيت . .

— أنت جئت في الوقت المناسب . . أريد أن أشرح لك ما حدث . . عندما قرأت الاعلان في الصحف قررت أن أهجر حياتي هذه وأن أتزوج وأعيش زوجة لرجل واحد . ولما كنت أنت يونانيا شعرت بالسعادة . . فأنا أحب اليونان . . وأريد أن أعيش يونانية . وحرصت أن ألك بملابسي الأنيقة لعلك تعرف حقيقتي . ولكنك لم تعرف . . ووجدتك تشرب اللبن . فقررت أن أشرب اللبن مثلك . ووجدتك لاتدخن فقررت ألا أدخن . وأحييتك من أول لحظة . . أحييت كل الذي لم أجده عند إنسان آخر . فأنت طيب وأنا لم أجده انسانا طيبا . . وإنما قررت أن أعيش لك . . وأعيش بك . . وأعيش معك فهل أنا مخطئة . .

ولم يجد مخالي ما يقوله . .

ولكن كلوى عادت تقول : لقد تركتك حتى انهارت كل
مثلك العليا . . وكلها مثل كاذبة . . أنا أعرفها أكثر منك . .
انهارت هذه الأكاذيب . . ولم تبق إلا هذه الحقيقة . . حقيقتي
وحقيقتك . . فهل تقبلني زوجة لك .

واقترب منها مخالي وهو لا يقوى على النظر إلى جمالها الذي غطته
الرمال . . وقال في أذنها : نعم . .

واقترب منها مخالي أكثر . واقتربت هي أكثر وأكثر . وقالت
له : قلها مرة أخرى في في . .

واقترب منها مخالي واتجه فمه إلى أذنها : ولكني لم أشرح لك بعد
مبادئ الكنيسة .

صلى .. وغيرها

كان من عاداته أن يصافح زوجته وابنه أمام باب البيت . . .
 عمد يده إلى الزوجة . . ثم ينحنى على ابنه الصغير يقبله . ولم يحدث
 أن فكرت الزوجة في هذا الموقف المتكرر . ولكنها هذه المرة
 أحست أن كل شيء غريب كأنه يحدث لأول مرة فهو هذه المرة
 صافح الزوجة بشدة وهو عادة عندما يصافحها كأنه يعطيها يده ثم
 يتخلص من يدها بسرعة . . أما هذه المرة فهو يشد يدها . .
 ويشد ذراعها ويشد نفسه من الموقف كله . . ويقول لزوجته .
 أراك في خير . .

ويقول لابنه : أراك في خير . .

أما القبلة التي يضعها على خد ابنه فهي حلقة في سلسلة من
 القبلات .. أنواع من القبلات بدأت من عشر سنوات يوم زواجه .
 كانت قبلته أول الأمر متأنية عميقة يختلط فيها الوجه بالصدر . .
 بالأنفاس بالعطور بالشوق باللهفة . . ويعانى كل منهما عذاب سفن
 الفضاء وهي تقتلع نفسها من جاذبية الأرض . . وبعد ذلك تباعدت
 المسافة بين الزوج وزوجته . . وأصبحت القبلة خاطفة . ثم مخطوفة .
 على الشفتين . . ثم على شفة واحد . . وعلى الخد . . وعلى الجبهة ..

وأكتفى بأن يقبل الهواء الذى بينه وبين زوجته . . أن القبلة التى يطبعها أو ينقشها على خد ابنه هى حطام هذا التاريخ . . وعلى الزوجة أن تضع شفيتها على بقايا شفته . . هناك على خد طفلها . .

أن هذه الحالة التى وصل إليها الزوجان هى بقايا شئ طويل عريض معقد يمكن أن يقال عنه : أن القبلات لم تعد من علامات هذا الطريق فهما يلتقيان على خد الطفل . . أو حول الطفل . .

ويوم قال لهما لآخر مرة : أراكما فى خير ، لم يرهما بعد ذلك ..
لا فى خير ولا فى شر . .

وكان المفروض أن يعود فى تلك الليلة متأخرا . فقد سافر من القاهرة إلى الأسكندرية لأمر هام وكل أموره هامة . وكلها عاجلة وكلها تتوقف على سرعته فى الخروج من البيت والبقاء فى البيت .. وتناول الطعام والكلام المختصر بينه وبين زوجته . . وأصبح هذا الشعور بضرورة السرعة مبررا لأشياء كثيرة . من بينها أن ينام مبكرا ليصحو مبكرا أيضا . . أن يأكل الطعام خطفا . أن ينصرف عن الكلام ليشغل بما يدور فى رأسه والذى يدور فى رأسه هو نوع من استئناف الحوار بينه وبين نفسه . . أو بينه وبين الخامين .. فهو محام — وبين القضاة وبين العملاء . . وهذا الزحام الذى حوله

والذى يصنعه ويحرص عليه يحقق له هدفا هاما جداً وهو ألا يترك مكانا لزوجته فى حياته الواعية أو حياته التى تنهذى بين اليقظة والنوم . . أو بين البيت والمكتب وغرفة النوم . .

وذهب فى تلك الليلة ولم يعد . . وانزعجت الزوجة . وازعجت معها عددا من أقاربها وأصدقائه . إنه لم يعد . ليست هذه عادته . فقد كان يحرص على ألا يزعج زوجته أو طفله . وكثيرا ما تأخر فى طنطا وفى المنصورة وفى أسوان واتصل بزوجته يعتذر لها . وقد لاتهم الزوجة بهذا الاعتذار . ولكنه يصر على الاعتذار كأنه يطبق أحد المبادئ الأخلاقية التى تقول : إذا وعدت فلا تخلف وعذك . . وإلا فاعتذر .

وكان يعتذر . . ولكنه هذه الليلة لاعتذر ، ولاعاد . .

وأبلغت الزوجة البوليس . وبدأ البحث عن الزوج الذى صافح الزوجة وقبل الابن وتمنى أن يراها فى خير . .

وراحت أمينته . . اختفت معه . . وليس فى استطاعة البوليس أن يعثر على الرجل ولاعلى أمانيه .

* * *

إنه الأستاذ سيف أمين المحامى وزوجته عنايات . . وقد أصبح من أشهر المحامين وأنجحهم . . وإذا اسمه تردد فعناه البراعة . البراعة

في المحكمة ، والبراءة — بمعنى السذاجة — في البيت — أو هذا هو تفسير زوجته . .

أما زوجته عنايات فهمى فهي سيدة مثقفة جميلة . وقد تزوج الاثنان عن حب . إنه من أسرة متوسطة . وهي من أسرة غنية . ولكن الفلوس لم تكن سببا . فهو يكسب الكثير . ولكنه لا يهتم بالكثير أو القليل . وقصة حبهما بدأت بأن ترفع في قضية لأحد أقاربها . وكانت البراءة احتمالا بعيدا . وحكمت له المحكمة .

ويوم احتفال قريبها هذا ببراءته ، رأى عنايات ، وبسرعة أعجبته وبسرعة قال لنفسه : هذه .

وكأن عنايات سمعت ما يدور في رأسه . . فاختفت عن عينه لتراه على حريتها فوقفت وراء أحد الأبواب . ورأت ملابسه . . الكرافتة والحذاء وأظافره وشعره . . وطريقته في الأكل . . ثم اهتمامه بكل من يتحدث إليه ومداعبته لقطة صغيرة . . وكانت هذه الملاحظات كلها هي حيثيات الحكم .

وتداولت مع نفسها وأصدرت حكمها قائلة : هذا هو الرجل . .

وتم الزواج . . .

وتحدث الناس عن هذه الحياة السعيدة . . واختلف الناس في مفهوم سعادة هذه الزوجية . . أناس يقولون : السعادة كلمة مؤنثة . . فالسعادة هي زوجته . . أنها ذكية حلوة أنيقة رقيقة . .

وتحب الناس . . ويحبها الناس . . وتحب أن يكون الناس حوله . .
 أن تخرج به من الدوسيات إلى الناس . . كأى انسان عادى . .
 وينسى أنه محام ، وأن كل الناس مجرمون ، إنه هو وحده المطالب
 بالدفاع عنهم . . أن هذا الأسلوب فى الحياة يجعل زوجته فى حالة
 دفاع مستمر عنه هو . . هو يدافع عن الناس ، وهى تدافع عنه
 هو وتبرر وتفسر كل ما يحدث له من سرحان ومن غضب ومن
 قلة ذوق أحيانا .

وأناس يقولون : بل السعادة هى الرجل . . فهو حسن
 التقدير وهو صبور وهو مجامل . . والذي يراه وهو يتحدث إلى
 زوجته ويبدى إعجابه بملابسها وتسريحة شعرها على مسمع من
 الناس يخيل إليه أنه عاشق .. وحتى ولو لم يكن عاشقا فهو حريص
 على أن يقيم لزوجته حفلة تكريم يقوم فيها هو بدور المايسترو . .
 أو بدور الملحن وعلى الباقين أن يمثلوا أدوراهم . . ثم هو رجل
 كريم . . وهو أيضا رجل قويم . . فلماذا لا يكون الزوج سعيدا
 . . أو الزوجان سعيدين . .

ولكن الناس لم يكونوا يعرفون ما يحدث وراء الأبواب . .
 ف وراء الأبواب ك وراء الكواليس المسرحية يجرى كل شئ
 فوضى . . وكل شئ على حقيقته المؤلمة .. أن هناك أكذوبة كبرى .
 هذه الأكذوبة بدأت تكبر وتتضخم بين الاثنين . . حتى تباعدا
 تماما . وأصبح كل منهما يرى الآخر صغيرا . ولا شئ يجعل

الإنسان تافها مثل أن يتغذى على أكذوبة كبيرة . . هي تقول عنه :
أنه أصبح تمثالا من الشمع . .

وهو يقول عنها : أنها أصبحت تمثالا من الرخام . .

إذن هناك أشياء قد نحتت . . كل منهما يرى الآخر جامدا
بلا حياة . أين ذهبت هذه الحياة . . ؟ أنهما الاثنان يعرفان
الحقيقة . ولكن لا يصرحان بما حدث بينهما .

بعض الأقارب والأصدقاء يعرفون . وبعض الجيران يتطلعون
إلى النتيجة الطبيعية . وهي أن يتفصل الزوجان . أو أن يدرك
الزوجان أنهما مقبلان على كارثة وأنه من الأفضل أن يتفاديا هذه
النهاية . قليل جدا من الناس يكره أن يتفرج على هذه
النهاية . ولكن الكثيرين يشعرون بشيء من الراحة أمام الفضيحة
ويشعرون بشيء من الانتعاش أمام كوارث الآخرين فتصبح
هذه الكارثة حديثا في التليفون وطبقا شهيا أو مشهيا على كل مائدة
وتحس كل زوجة أنها شيء آخر . . وكل زوج أنه من طينه
أو من عجينة أخرى . . وأن كل الناس عقلاء فيما عدا هذين
الزوجين . .

ولم يتدخل أحد . فالناس يرون الأستاذ سيف أمين رجلا عاقلا .
وأنه مادام يقدر على إقناع القضاة فلن يعجز عن إقناع زوجته . .

فاذا كان في وقت ضيق يجعل القاضي ينطق بالبراءة ، فانه يستطيع مع هذه الجلسات الطويلة المتصلة مع زوجته أن يقنعها بالخروج من هذا المأزق . . أو بالخروج من الجمود أو البرود إلى الذوبان في البيت وفي الناس . . وإلى الاقتراب منه أكثر وأكثر . . ولكن الناس ينسون أن هذه الجلسات الطويلة تجعل الدفاع صعبا . . ثم أن الزوج لا يكون هو المحامي . . وإنما يكون المحامي والقاضي والنيابة . . وفي كثير من الأحيان يكون المتهم . . وإذا كان الزوج قد احترف المحاماة ، فانه في البيت قد احترف الجريمة – أي أن يكون مجرما في نظر الزوجة . .

ولم يحدث جديد في هذه الصورة أو هذه السيرة . .

وفجأة حدث التغيير الذي ينعش المأساة وينحدر بها إلى النهاية . فالى جوار الأستاذ سيف أمين المحامي توجد أسرة متوسطة الحال والعدد . . أرملة لها ولدان رجلان . أحدهما مهندس كان يعيش في الكويت . والآخر محاسب في إحدى شركات التأمين . وقد عاد المهندس أخيرا من الكويت على أثر برقية بعثت بها الأم تقول فيها : أحضر . . أخوك في خطر . .

وجاء المهندس حمدى سليم لينقذ أخاه الأصغر من الخطر . . فقد اتهم الأخ الأصغر شوكت سليم باختلاس مبلغ من المال .

ولم يكن المهندس حمدى سليم يعرف الكثيرين من المحامين في القاهرة ولكنه بسرعة سمع عن المحامى الشهير سيف أمين . وذهب إليه . وقدم نفسه ولم يكن من الصعب عليه أن يقول له : صحيح نحن جيران . ولكنى أعيش في الكويت منذ عشر سنوات . ويبدو أن الدنيا معالمها تغيرت . . ولكن من المؤكد أنك من معالم البراعة في دنيا المحاماة . .

وتراجع الأستاذ سيف أمين وحكمت المحكمة ببراءة المحاسب شوكت سليم . .

وأقام الاخوان حفل عشاء في بيتهم ودعى الأستاذ سيف أمين والسيدة عنايات . وفي جو سعيد تم اللقاء بين الجميع . وثم لقاء غريب عجيب بين المهندس حمدى سليم والسيدة عنايات ..

وكانت شخصية المهندس مسلية . ممتعة . فقد أقام بعيدا عن مصر وعنده قصص ونوادر . وأثناء الطعام انفرد هو بكل الاهتمام وشعر الأستاذ سيف أمين المحامى بسعادة مؤكدة . فقد أصبح له صديق جديد . هذا الصديق ممتن له . . ومعجب به . وبدأ المهندس حمدى سليم يتحدث عن حياته الزوجية بسرعة . وعرف الحاضرون أنه لم يكن سعيدا في حياته . وأنه تزوج واحدة لم تعجبه . وأن من هذه العلاقة الفاشلة أنجب ابنة ، هي أحمل ماوهبه الله . . وأن هذه الابنة ، هي نوع من الاعتذار من الأقدار عما حدث له . . بل

إنه أحيانا يغفر لزوجته ما حدث منها . . يكفي أنها أعطته هذا
الكائن الجميل . .

وتردد المهندس حمدى سليم على بيت صديقه الأستاذ سيف
أمين . تناول الغداء والعشاء . . ودعا الزوجين إلى عشاء وغداء . .
وتمكنت الصداقة من الجميع . .

وفى كل مرة كان المهندس حمدى سليم يرى فيها السيدة عنايات
يقول لنفسه : حلوة . رقيقة . عصبية . خيالية . . ولا بد أن تكون
حزينة مادامت زوجة لرجل ناجح مشغول . أنها فى حاجة إلى صبر
أيوب . . ويبدوا أنها قارنت بين حياتها مع زوجها وحياتها من
غيره . . ولكنها حائرة . فلم تتخذ قرارا . وعندما يحار الانسان
فانه يريد من أى انسان أن يدفعه إلى الأمام قليلا . ويصبح هذا
الدافع هو وحده المسئول عن القرار كأنه هو الذى اتخذه . وفى هذه
الحالة تكون المرأة بريئة . . أو تقول لنفسها أنها بريئة . . وأنها
مدفوعة إلى هذه النهاية . .

وقد سمع المهندس حمدى سليم تاريخ حياة السيدة عنايات ساعات
وساعات فى التليفون . وأصبح واحدا من أفراد هذه الأسرة
الصغيرة . وطرفا فى كل قضاياها .

وكانت الصعوبة التى يواجهها دائما هو كيف يكون صديقا

لاثنين ليسا أصدقاء . . ثم أنه صديق لأحدهما . . للزوجة . .
أنه ليس صديقا فقط . . فهو مثلها قد لقي نفس المصير . . لقد
تركته زوجته وتركت له هذه الابنة . . والسيدة عنايات تريد
أن تترك زوجها - نعم هذا قرارها - لترك لها هذا الابن الصغير..
كلاهما إذن تزوج من لا يحب . . أو من لم يعد يحب . .

. وروى للسيدة عنايات أيضا قصة حياته مع زوجته . وأطال .
وحاول أن يبدو أمامها ظالما . وأنه هو الذى ظلم زوجته . وأنه
الذى أساء فهمها . وكأنه أمعن فى اتهام نفسه ، تولت السيدة
الدفاع عنه . . أى أنها وقفت إلى جواره ضد زوجة لاتعرفها ..

ولاحظ المحامى سيف أمين أن أسبوعا وأسبوعين وثلاثة قد
مضت دون أن يعود حمدى سليم وابنته إلى الكويت . ولاحظت
أمه أيضا كل مايجرى . وسألته وصارحها ، وانزعجت الأم .
وقد انزعجت أمه كثيرا قبل ذلك . واطفأت انزعاجها وقلقها
فى صدرها . فهي تعلم أن ابنها لايلين . وأن الذى يدور فى رأسه
هو الذى سوف يكون قرارا . ولذلك لم تبد رأيا . وإنما انتظرت
رأيه . وقال رأيه وحزنت الأم . .

وجاءت رسالة من خادمة تعمل فى بيت الأستاذ سيف أمين
تقول : زوجتك على علاقة بصديقك المهندس . فأدرك النار قبل
أن تحرق البيت . .

ولم تشتعل النار في البيت ولكن في قلب الأستاذ سيف أمين ..
 وإن كان هو قد قام بعملية إخماد لهذه النار بشكل ما .. فعندما علم
 أن زوجته على علاقة بهذا المهندس أحس بشئ من الارتياح .
 هذا الارتياح هو نوع من التبرير للعبث الذي يقوم به دون أن
 تدري الزوجة .. إذن زوجته تخونه ، وهو أيضا يخونها أن خيانتته
 لها ما يبررها إذن .. ولكن هذه الفكرة عادت فاشتعلت مرة
 أخرى . فقد أحس بغيرة محرقة . لأنه لم يكره زوجته للدرجة
 التي تجعله لا يغار عليها .. ثم إنه لم يهن أمره على نفسه للدرجة أن رجلا
 يدخل بيته ويأتمنه على شرفه وعلى زوجته ثم يخونه .. أي يجعله
 مغفلا ..

وأمسك الأستاذ سيف أمين التليفون وقال مندفعاً وكأنه يخشى
 أن تقطع أنفاس التليفون : اسمع يا حمدي .. أنا أدخلتك بيتي .
 وأنت فضحتني . الناس كلهم يتحدثون عن علاقة مريبة أرجو
 ألا أصدقها . ولكني أرجو أيضا ألا تكون سببا في خراب بيت
 سعيد على رأس طفل بريء .

ووضع سماعة التليفون . ورنّت هذه العبارة في رأسه ..
 واستعادها مرة ومرة .. ولكنه رفض كلمة « سعين » .. وكأنه
 يتمنى أن يقول « كان سعيدا » .. ولكنه لو قال ذلك لجاءت هذه
 الكلمة مبررا لأن يلهو في بيته مثل هذا الصديق .

وأحس المحامي سيف أمين أنه لم يفقد أعصابه . والدليل على

أن عبارته جاءت دقيقة . ولكنه لا يلزم أن كانت أعصابه ستقلت منه عندما يرى زوجته أو يرى المهندس حمدي سليم .
وتوالى خطابات أخرى كثيرة تؤكد هذه العلاقة التي بين حمدي سليم وعنايات .

وقرر حمدي سليم أن يقابل سيف أمين في بيته وان يشرح له موقفه .

وقال له : كل ماقلته للسيدة العظيمة هو مالا ينجل أخ أن يقوله لأخته . ثم أنها هي التي شجعتني على أن أروي لها قصة حياتي . . . وهي مأساة حقيقية وإنني أكرر اعتذاري . . فليس معقولا أن رجلا أنقذ أخى من السجن ، يكافأ على ذلك بخراب عشه السعيد . .

وأحس سيف أمين أن حمدي سليم كان صادقا . واعتذر له . وطلب إليه أن يعذره . لأنه رجل حسن السمعة . وأن مواهبه إنما تفتحت في جو السمعة الحسنة . . وأن السمعة الحسنة هي أوكسجين حياته . .

وعاد حمدي سليم يستأنف التردد على بيت صديقه سيف أمين . . ولكن شيئا ما حدث . . فقد لاحظ سيف أمين في إحدى المرات أن ابتسامة على وجه زوجته لم تكن مريحة . .

فأثناء تناول الطعام قال حمدي سليم شيئا عن زوجته هو فما كان

من عنايات إلا أن ابتسمت . . وجاءت هذه الابتسامة مصحوبة
 بلمعان غريب من عينيها . . وغمزة خاطفة . وتأكد سيف أمين
 أن الذي بين زوجته وبين حمدي سليم حقيقة وأن خطابات الناس
 لم تكن تعجلا للتأنيج . . أو تعجيلا لها . . وإنما هي ملاحظات
 مكتوبة من أناس رأوا كثيرا . . ولم يصبروا على مارأوا . .
 وأرادوا أن ينسفوا ماعنده هو من صبر أيضا . .

وبعث بخطاب إلى المهندس حمدي سليم يقول فيه : لاداعي لأن
 يكون أطفالنا ضحايا تعاستنا الزوجية . . تعاستك وتعاستي، أيضا . .
 وأنا مضطر أن أحمي ماتيتي من كرامة ومن بيت . وأول خطوة من
 خطوات الدفاع أن أمنعك نهائيا من دخول بيتي أو الاتصال
 بزوجتي بأي وجه من الوجوه .

وتلقى هذا الرد من المهندس حمدي سليم : أنك ياسيدي تخلق
 مأساة جديدة . وليس من حق الآباء أن يفرضوا حماقاتهم على
 على أبنائهم . . فقد تعلقت ابنتي بزوجتك . وهي معذورة فهي
 محرومة من الأم . وقد تفاهمت زوجتك وابنتي بسرعة . . وربما
 كانت هذه السرعة سببا أن أحدا لم يتدخل بينهما . وسوف أكسر
 قلب ابنتي وأعود بها إلى الكويت . . غير آسف على شيء . .
 إلا على صداقة ولدت وكبرت وترعرعت ودفنت في قلبين تحت
 وابل من خطابات كاذبة . .

ونقل حملى سليم إلى عنايات كل مدار بينه وبين زوجها .
وثارت الزوجة وقالت الجملة التي احتبست بين شفيتها زمنا
طويلا : طلقنى . . .

وبرود غريب قال لها : عمرك أطول من عمرى . . كان فى
نيتى أن أقولها . . ولكنى لأحملك أى لوم لأنك سبقتنى إلى هذه
العبارة . . وإنما أردت فقط أن أقارن بين وجهك وصوتك
وشفتيك وقوامك وعطرك وأنت تقولين هذه الكلمة ، وبين
ما كنت عليه عندما قلت لى لأول مرة : أحبك . . طبعاً أنت
لا تريدن أن أذكرك بماضينا .. لا تريدن ولا أنا أريد . . فمات
مات . . أو من الواجب أن يموت . .

ولجأ سيف أمين إلى خال زوجته . أنه رجل عاقل . كثيراً
ما استشاره وكثيراً ما استعان به على زوجته فى الأمور الصغيرة
والكبيرة . . وفى الأمور الصغيرة أكثر . .

وحدث ما يتوقعه الطرفان عندما يدخل بينهما ثالث . . حدث
هدوء مؤقت . .

وجاءت الزوجة تقول لزوجها : فكرت وعدلت عن الطلاق ..
فأنا لأريد أن يتعذب طفلنا . فن أجله يمكن أن احتمل هوأنا
من والده أكثر من ذلك . ولكن بشرط :

فقال الزوج : أقبل شروطك .

وقالت الزوجة : أن تكون في واد . . وأنا في واد آخر . .

وعاد الزوج يقول : وألا يكون الطريق بين الواديين مفروشا
بالكرامة تلوسها الاقدام ذهابا وإيابا . .

وكان عبارته هذه جاءت بعد أن صدر الحكم ورفعت الجلسة
وخرج كل من في المحكمة . . فلم يسمعها أحد . . أو سمعها كل
الحاضرين ولم يجلوا لها معنى . .

وقال الزوج في نفسه : مادامت لا تريد الطلاق : إذن فالمهندس
حمدي سليم لم يعد بها بالزواج . .

وأحس الزوج باهانة أخرى . . فهي لم تقرر البقاء من أجل
طفلها ، أو من أجل حب قديم ، أو من عشرة كانت سعيدة ،
ولكن لأنها مرفوضة . . لأنها ألقيت من النافذة . . فهي إذن
قد عوقبت من رجل آخر . . ولكن لا بد أن يعاقبها هو . . ولم
يفكر في العقاب . . فلماذا لا يطلقها هو . . ولماذا لا يرفضها
هو أيضا . . فقد بدأت هي بالرفض . .

وقرر أن يطلقها لولا أن طفلها أصيب في حادث سيارة . ودخل
المستشفى . والطفل يتعلق بأبيه أكثر من أمه . . ويصر على بقاء

الأب إلى جواره . وكانت زيارة الأب لابنه في المستشفى نوعاً من التكريم المؤلم له . . فهو يترك أمه ويتجه إلى . أبيه أي أن الطفل يرفض الأم في حضور الأب . . ولكن الطفل الصغير لم يكن يعرف معنى مايفعل . ولاعق هذه الضربات التي يوجهها إلى أمه . . بمجرد أن بمد يده . . أو يحاول النهوض من الفراش عندما يدخل أبوه . . أو يعانقه أو يقبله .

أما لماذا عادت عنايات إلى زوجها تطلب إليه أن تبقى معه في بيت واحد وليس تحت سقف واحد أو غطاء واحد ، فلأنها أدركت بغريزتها أن حمدي سليم لم يكن يحبها حقيقة . . وإنما هو يريد امتلاكها أو يملأ بها الفراغ الذي تركته زوجته . . فقط ملء فراغ ومن أجل ابنته . . هو يريد لها من أجل ابنته . . ومطلوب منها أن تترك ابنها من أجل ابنته . .

وكما قالت عندما رأت زوجها : هذا الرجل هو الذي أريده . . راجعت نفسها وقالت عن حمدي سليم : هذا هو الرجل الذي لأأريده ولاأستطيع أن أكون معه . . أو أعيش له . .

* * *

وفي الليلة السابقة على اختفاء المحامي سيف أمين سهر في مكتبه حتى ساعة متأخرة . وعندما عاد إلى البيت لم يذهب إلى فراشه .

وإنما ظل ساهرا في غرفة ابنه الصغير . وعلى الرغم من أن الطفل كان نائما فقد بقي المحامي يقلب في أوراق قديمة . . دوسيهات قديمة . إنها إحدى القضايا التي كسبها . وكان لها دوى في الصحف . ولكن السبب لاهتمامه بهذه القضية لم تكن ذكرياتها الجميلة فقد كسب قضايا كثيرة . ولم يصبح للنجاح لذه . وإنما أصبح النجاح عادة سيئة . فلأن النجاح عادة لم تعد له متعة . ولأن الناس اعتادوا منه أن ينجح كان عليه أن يكد ويتعب . وينزل وينفرد . . ويعكف على البحث ليلا ونهارا . فالنجاح في المكتب وأمام الناس هو الذي جعل الفشل عادة في البيت ومع زوجته وبين أقاربه وأقاربها . . وأصبح نجاحه مبررا لكل خلافات زوجية . .

وعندما أقل دوسيهات هذه القضية الغريبة قرر فيما بينه وبين نفسه : أستطيع أن أعمل نفس الشيء . .

وسأل نفسه : ما الذي يسعد زوجتي الآن ؟

وأجاب : أن أخفى . ومن الأفضل أن يكون الاختفاء نهائيا . . أن أموت . . تماما كما حدث في هذه القضية . .

وسافر المحامي سيف أمين إلى القاهرة . . وفي بيته قرر ألا يرى زوجته في خير . . وألا يرى ابنه الوحيد أيضا . . أن حياته لم يعد لها معنى عند أحد . . وإذا كان لحياته معنى عند طفل . فهو معنى

غامض . وليس أسهل من أن ينسى الأطفال . . إنه هو شخصيا قد نسي أن والده قد مات . . لقد وجد عمه . . وقالوا له : هذا أبوك .

ثم أن الحياة لم يعد لها معنى عنده أيضا . . إنه تعب . . وأنه لا يعرف كيف يوفق بين ما يدور في رأسه ، وما يدور في عمله وما يدور في بيته . . وإنه قد حاول كثيرا أن يجد طعاما على لسانه ، ونعمة في أذنه ، أو دلالة في قاموسه . . لم يجد . .

ولكن ما الذي منعه أكثر من مرة أن ينتحر . أنه لا يعرف بوضوح . لأنه لم يفكر كثيرا في هذه الحياة أو في التخلص منها . . ومصيبة هذه الحياة أنها تغرق الناس . . ينشغلون بها . وينشغلون عنها . . ولا يأخذون منها إلا القليل . والقليل الذي يأخذونه يكون عادة وهم في حالة من الغيبوبة . . من النوم . من اللبوة . . وهو يدين للنوم بأجل ما في الحياة . فقد كانت أحلامه أروع من الواقع . . وكان النوم عملا اراديا . فهو الذي يتصيد بالنوم بالحبوب .

وكان النوم مأذون يعقد له على زوجته كل ليلة فأصبح النوم مأذونا يطلقه من زوجته كل ليلة . .

وهو الآن يريد أن يطلق الزوجة والعمل والحياة كلها . . أنه حر في حياته . لم يعد يهم أحدا . لأحد يهم أحدا . . هذه حياته وهو حر في أن يرمى بها في أقرب نهر . . أو تحت أقرب قطار . . أو يلقي بها للسك . .

وذهب إلى القاهرة . .

وفي نفس الليلة التي اختفى فيها ولم يعد ، تلقى البوليس رسالة من مجهول يقول : اعتذر عما حدث في مكتي . أن المحامي سيف أمين قد مات في هذه الغرفة . الغرفة طولها أربعة أمتار وعرضها متران وارتفاعها ثلاثة . وعلى أرضها سجادة عجمي قد غرقت في الدم . . إنها غلطى على كل حال . فأنا رجل عصبي وهذا واضح من خطي ومن ارتعاش يدي . وكان على مكتي مسدس . وجاءني السيد سيف أمين في قضية هامة . واستشرته . ولا أعرف لماذا لم أطلق عليه الرصاص في وجهه ربما كنت جباناً . أو ربما لم يعجبني قفاه . ولم يعجبني ذلك العنق الذي انحنى إلى الأمام من كثرة القراءة . . إنه يشبه عنق الذي انحنى إلى الأمام بسبب كثرة الجلوس إلى موائد القمار . . وأطلقت عليه النار . . فمات وسوف تجدون أن الرصاصة قد أصابته في رأسه من الخلف . صحيح أنني جبان . لكني لست نذلاً . ولذلك أسلم نفسي للبوليس ، وعنواني هو ١٣٧ شارع عرابي . . وأحب أن أضيف شيئاً آخر وأقول إنني رجل لبناني وليس لي أصدقاء في مصر .

وكان الخطاب موقعا بامضاء . فريد خوري . .

وقد اعتاد البوليس أن يتلقى خطابات كثيرة من هذا النوع يكتبها أناس مخفاه أو مجانين يريدون أن يضلوا البوليس . . ولكن عندما أبلغت عنايات أن زوجها قد اختفى ولم يعد . . وأن هذا

غير طبيعى . . أحس البوليس أن الأمر جاد . . وأنه من الأفضل أن يبحث عن هذا القاتل فريد خورى . . وذهب إلى العنوان . . ووجدوا فعلا لافتة على الباب : فريد خورى - شركة استيراد وتصدير . . وعرف رجال البوليس أن هناك رجلا بهذا الاسم . . وأنه واسع الشهرة . . وأنه قد أستأجر هذه الشقة منذ شهر . .

وأقتحم رجال البوليس الشقة . . ودخلوا غرفة المكتب . . وعلى أحد المقاعد الوثيرة كان المحامى سيف أمين قتيلا . . ولكن لم يجدوا القاتل فريد خورى . .

ووجد رجال البوليس خطابا فى جيب المحامى سيف أمين بأعضاء فريد خورى يدعوهم إلى مكتبه بصورة عاجلة ليستشيرهم فى إحدى القضايا . . وعثروا على برقية عاجلة تطلب سرعة سفره إلى الإسكندرية . .

ونقل جثمان المحامى سيف أمين إلى القاهرة . . وشرحت الجثة . . وأثبت الطبيب الشرعى أن القاتل ظل ملقى على الأرض بضع ساعات . . وأن شخصا قد نقله من الأرض إلى المقعد . . وأن هذا الشخص قد ترك أثرا ضئيلا لحذائه على الدماء الجافة فى أرض الحجرة . .

وحزنت عنايات على ما أصاب زوجها . . وحزن ابنه الصغير . . وكان مشهد الابن فى جنازة الأب يذيب العيون دمعاً وأسى . .

وكان من بين المشيعين أيضا الاخوان حمدي سليم وشوكت
سليم . .

وتلقى البوليس خطابات تقطع بأن القاتل هو المهندس سليم الذي
كان على علاقة بأرملة المحامي . . ولا يستبعد أن يكون القتل بالاتفاق
مع هذه الزوجة . .

وحاول البوليس أن يعرف بحيل عديدة خط حمدي سليم ونخط
أخيه شوكت سليم . .

وتأكد لدى البوليس أن كاتب هذا الخطاب هو شوكت سليم . .
لا شك في ذلك . .

وأتى القبض على الاخوين . .

وعلى الرغم من البراعة التي أستخدمت في تحقيق هذه الجريمة ،
فان شوكت سليم قد نسي أن يبعث خطابا بخط شخص آخر . .
أويسكتبه على الآلة . . لقد نسي ذلك . . أو تعجل . . أو لعله ظن
أنه بعيد تماما عن عيون العدالة ورجاها . .

وأندهش الناس لإلقاء القبض على الاخوين . .

أما القاتل أو كاتب الخطاب فهو شاب نصاب مقامر . . وفي
حاجة مستمرة إلى الفلوس . . وكثيرا ما سرق أموال أخيه . .

ومعروف أنه بلا قيم أخلاقية وربما كانت القيمة الوحيدة التي
ما يزال يحتفظ بها هي أن يكون صادقا مع نفسه فيكذب دائما
على كل إنسان . . وخصوصا أقرب الناس إليه . .

وأدرك الأخ الأكبر حمدي سليم نقطة الضعف في أخيه : أنه
شخص للبيع . . والاقربون أولى بشرائه . . فأشتراه وأتفق الاثنان
. . وقبل أن يتفقا تناقشا طويلا . . وسام كل منهما الآخر . .
. . على القلوس وعلى الفضيحة . . ودفع حمدي مبلغا من المال . .
وطلب إلى أخيه أن يسافر كثيرا إلى الإسكندرية وإلى القاهرة
وإلى لبنان وإلى الكويت . . وإن يستخدم براعته السابقة في التمثيل
. . فيطيل لحيته ويشتري لنفسه باروكة شعر أسود . .

وبلغ من قدرة شوكت على تزوير ملامحه أن حمدي سليم دعاه
إلى الغداء في البيت ورأته أمه ولم تعرفه . . فقد طال شعره وشاربا
. . وأفتح له الأخ الأكبر مكتبا تجاريا في الإسكندرية . . باسم
لبناني : فريد خوري . .

وبسرعة أفلح فؤيد خوري في أن تكون له علاقات كثيرة
ومتعددة . . وأن ينفق من مال أخيه على السهرات وعلى الفتيات . .
وعلى البوابين وعلى السفرجية . . وأن يمتلئ من حين إلى حين . .

ونمت الجريمة باتقان . . وأختفى (فريد خورى) . . وعاد إلى القاهرة شوكت سليم يعيش حياته العادية كأن شيئا لم يحدث . . وبعد أيام من البحث والمراقبة عرف البوليس حقيقة القاتل . .

* * *

وفي قفص الإتهام دافع حمدي سليم عن أخيه شوكت وقال : أنه إنسان طيب . . وكان يتمنى أن يكون ممثلا ناجحا . . وكان من عادته وهو طفل أن يتخفى السكاكين تحت مخدته ليقتل السلطان . . وأن أباه قد ضربه كثيرا . . فعدل عن وضع السكاكين وراح يضع الحبب . . والمسدسات . .

ودافع شوكت عن أخيه حمدي سليم فقال : أنا القاتل . . وليس من حق البوليس أن يعتقل رجلا بريئا . . كل جريمته أنه أحب أرملة القتيل . . وعلى الرغم من هذا الحب الهائل ، فإنه لم يفكر لحظة واحدة في أن يقتله بيده . .

وعاد حمدي سليم يقول : ولا أرى أن أخى هذا هو القاتل الحقيقى . . ولا يمكن أن تكون كراهيتى أنا للمرحوم سيف أمين سببا في أن يقتله أخى . . أن أخى مجنون . .

وصرخ شوكت سليم : لست مجنونا . . أنا قتله بكامل وعي . .

وأنا الذى وضعتة فى هذا المكان . . ولكن كان فى أستطاعتك أنت أن تكتب الخطاب على الآلة . . وإنما أنت الذى عدلت فى آخر لحظة وطلبت منى أن أكتبه بيدي لأن أحدا لن يعرف هذا الشخص الذى أسمه فريد خورى . . أنت الذى أردت أن أقتل المحامى . .

وأثناء المحاكمة دخلت عنايات أرملة سيف أمين . . ونظر إليها حمدى سليم ولم يرها . . بوضوح . . ولا هى رآته بوضوح . . ولكن رآهما الناس بوضوح شديد . . ومن المؤكد أن أحدا منهما لم يستمع إلى همس الناس : هذه هى . . ليس واضحا أنها مجرمة . . تمثيل فى تمثيل . . حزن مصطنع . . مجرم حقيقى . . كان محاميا عظيما . .

ومن أسرار هذه الحياة الغريبة ما حدث بعد لحظات . .

فقد فوجئ الحاضرون بحمدى سليم يصرخ بأعلى صوته .
أبنتى . . أبنتى . . ثم ينهار باكيا . .

ولكن أحدا لم يعرف بالضبط ماذا حدث لأبنته . . وحاول أخوه أن يمد يده إليه . . ولكنه عدل فى الحال . . فلم يعد الأمر يعنيه . . فكلاهما مجرم . . كل منهما سوف يلتقى جزاءه . .

ولكن السيدة عنايات بعد أن أقربت من مقعدها أنطلقت إلى

خارج المحكمة . . ولم يحاول أحد أن يمنعها . . وكانت تخوض
 في أمواج من الهمس . . والكلام الصاخب والإستنكار . . وأحس
 الناس بشئ من الأرهاق لما حدث . . فلم يعد عند أحد رغبة في أن
 يقبل على مثل هذه الألفاظ . . فالتناس يريدون أن يعرفوا من هو
 القاتل وما هو عقابه . . ويطمئن كل إنسان إلى أن العدل قد تحقق
 بقوة المنطق أو قوة السلاسل والسلاح . .

وأمام باب المحكمة كانت عنايات قد تركت أبنها الذي لم يكف
 عن البكاء منذ مقتل والده . . وتركت معه ابنة حمدي سليم التي
 رفضت أن تدخل المحكمة لترى والدها . . والتي حاولت في الأيام
 الأخيرة أن تلتقي بنفسها من النافذة . . ولكن هذه الطفلة متعلقة
 بعنايات . . : وطلبت عنايات من السائق أن يقفل أبواب السيارة
 على الطفلين إذا فكر في أن يذهب إلى مكان ما . .

وعندما عادت عنايات إلى خارج المحكمة بحثت عن سيارتها فلم
 تجدها . . ولكنها بسرعة غريبة عبرت الشارع دون أن تسمع
 فرامل السيارات الصارخه يمينا وشمالا . . ووجدت سيارتها في
 نهاية الشارع . . وراحت تخوض في جمع كبير من الناس ولم تنظر
 إلى ما تحت أقدامها . . وإنما نظرت في السيارة لم تجد الطفلة . .
 وألقت وراءها لترى الطفلة قد صدمتها إحدى السيارات

والتف حولها الناس . . أنهم نفس الناس الذين فرقت بينهم بالقوة
دون أن تدري . .

* * *

ولا يهم بعد ذلك ما الذى أصدرته المحكمة . . لقد أستراح الناس
إلى القضاء . . إلى قضاء الله أيضا . . ولكن لم يفهم الناس ما الذى
أرتكبته طفلة صغيرة أبوها قاتل . . أن موت الطفلة عقاب للأب
. . صحيح . . ولكنه موت أيضا للطفلة . وموت المحامي عقاب لمن ؟
ليس عقابا لزوجته . . فهي لم تكن تحبه . . وكانت تفكر في أن
تتركه . . وإذا كانت قد عدلت عن هذا القرار فليس ذلك حبا فيه ،
كان يأسا من غيره . . فما هو عقابها . . لا بد أن يكون العقاب هو
مقتل هذه الطفلة البريئة التى تعلقت بها ولا بد أن يكون مقتل
الزوج وسجن الحبيب هو العقاب . .

أما عقاب حمدى سليم فهو أقسى من أن يوصف . . أما عقاب
شوكت سليم فهو يستحقه وهو معترف بذلك . .

وأستراح الناس . . فصائب الناس تنعش غيرهم من الناس . .
لأن الحياة مملة . . ونحن في حاجة إلى من يهزها بعنف . . يهزها
دون أن يهزنا . . بسيل من الدماء . . بشرط ألا تكون دماءنا . .

* * *

ومضت سنة على هذه الكوارث . . وفي الذكرى السنوية
لجميع تلقت السيدة لبيبة أم الأخوين حمدي وشوكت خطابا
يقول : الحق . . أن أبنيك سمير قد أصبح عاشقا لعنايات أرملة
الحامي سيف أمين . .

أما سمير هذا فقد كان طالبا يدرس في أمريكا ولم يتمكن
من العودة يوم ألقاء القبض على أخويه . . لقد عاد بعد ذلك . .
وصدمه النبأ الفظيع . . وأحس برغبته في أن يقطع دراسته فتقدم
فضحته الصحف . . وضايقه من زملائه أنهم يسألون عن الجريمة
والقتل . . ولكنه تماسك وأصر على أن يكمل دراسته وأن يجعل
بقاءه في الخارج نوعا من الاحتجاج على زملائه . . والاحتجاج
على أخويه . . ولكنه عاد بعد ذلك . .

وسأله أمه : هل صحيح يا ولدي . .

فقال : صحيح يا أمي . .

— لماذا يا ولدي ؟

— لقد أوصاني أخي حمدي بها . .

— وقال لك تزوجها ؟

— لم يقل ذلك . .

— إذن ؟

— لا شيء . . يمكن أن أتركها . . أنى لم أرها
إلا ثلاث مرات . .
— أحسن يا ولدى . .

وتلقت الأم خطابات تقول : أن أبنك والأرملة يلتقيان سرا . .
ومزقت الأم الخطاب . . ولم تشأ أن تقول لأبنها شيئا . .
وتلقت الأم خطابا لم تفتحه يقول : أنهما أتفقا على الزواج . .
وأنهما زارا حمدي وشوكت في السجن . .

وجاءت خطابات كثيرة لم تفتحها الأم ثم توقفت هذه الخطابات
عندما قررت عنايات فجأة أن تسافر إلى الخارج مع أبنها . .
وعرفت الأم في آخر لحظة أن هذه الأرملة قد سافرت إلى الخارج .
وحاول سميح أن يقنع والدته بالسفر !! فان الحياة بعد هذه
المأساة لم يعد يطيقها أحد . .

وقال : لم يعد لنا شيء . .
وقالت : لم يعد لك أنت؟؟
وقال : وماذا يفيد بقاؤك . .
وقالت : وماذا يفيد سفرك أو سفري ؟
وبقيت الأم وحدها . .

ومضت سنة .. وعشر سنوات .. ولم يعد أحد من الذين
خرجوا من البيت .. وسوف تبقى الأم عشر سنوات .. دون أن
يعود أحد .. وقد اعتادت أن تفتح بعض الخطابات التي تصلها
في الذكرى السنوية لوفاة حفيدتها .. ودخول ولديها السجن ..
ولكن أكثر الخطابات تكدها الأم ولا تفتحها ..

ولا يزال الناس كلما يرونها يتناقشون في معنى عدالة الأرض
وعدالة السماء .. ولم يهتدوا إلى حل .. ولكن هذه الأم قد
أهتدت إلى حل : أن تبكي .. لأنه لا فائدة من شيء .. لا من الدمع
ولا من الصبر .. فهناك قدر .. وعدالة .. ودماء .. ولا يعرف
الإنسان إلا النهاية .. وقبل النهاية بقليل ..

في هذا الكتاب

١٠ — ٥	• • • • •	قصة حبيبي
٢١ — ١١	• • • • •	من غير نهاية
٢٥ — ٢٢	• • • • •	خرج من حياتي
٢٨ — ٢٦	• • • • •	ونظروا وراءه
٣٧ — ٢٩	• • • • •	عذاب نانسي
٤٤ — ٣٨	• • • • •	أم عباس
٤٨ — ٤٥	• • • • •	ليلة من الف
٦٢ — ٤٩	• • • • •	وكانت النهاية
٧١ — ٦٣	• • • • •	هروب
٧٩ — ٧٢	• • • • •	حواجز من الزجاج
٨٥ — ٨٠	• • • • •	الفصل الأول والآخر
٩٢ — ٨٦	• • • • •	أسطورة مريانا
١١٤ — ٩٣	• • • • •	السعادة ارادة الله
١٢٧ — ١١٥	• • • • •	البحث عن بداية
١٣٩ — ١٢٨	• • • • •	عريس باليسانس
١٧٤ — ١٤٠	• • • • •	اصابع بلا بصمات
٢٠٦ — ١٧٥	• • • • •	شعاع
٢٣٣ — ٢٠٧	• • • • •	مخالي .. عريسا
٢٦٢ — ٢٣٤	• • • • •	هي .. وغيرها

رقم الإيداع : ٨٧/ ٥٣٣٧

الترقيم النوى : ٩٧٧ - ١٤٨ - ١١٢ - ٦

مطابع الشروق

القاهرة : مطابع جواد حفيظ - هاتف : ٧٧١٨١ - ٧٧١٥٧٨ - بريد : فريدات - تلصق : ٤٥٥٩١ SHROK UN
بشرية : مطابع ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٨٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - بريد : بشارت - تلصق : ٤٥٥٩١ SHROK NITS LE

